العلم الثقافي

المدير: عبد الله البقالي

سنة: 57

سنة التأسيس: 1969/2/7

الخميس 23 من شعبان 1447

الموافق 12 فبراير 2026

10 ، شارع زنقة المرج حسان الرباط

Bach1969med@gmail.com

يَابِسَتَان لاَلْتِئَامِ الطُّوفَان

يابسة أولى

قَدْ تَغَيَّرَ طَقْسُ زَمَانِي
كَثِيراً ،وَمَا عُدْتُ
أَعْرِفُ فِي الفَصْلِ
فَصْلاً
واحْتَبَسَتْ فِي الرُّؤُوسِ
الْحَرَارَةُ حَتَّى غَدَتْ
شَمْسُنَا
مَطَراً ،
وَالنَّهَارَاتُ
لَيْلاً..
وَصَارَتْ كُلُّ النَّوَارِسِ
حَدْبَاءَ أَشْبَهَ
بِالفُقَهَاءِ عَلَى
عَتَبَاتِ الْبِحَارِ!

تُرَانِي أَقِيسُ
بِسَقْفِ الْمَدَى
غَرَقِي
أَمْ
سَأَخْلُدُ
لِلصَّمْتِ نَهْراً
يُكَلِّمُنِي بِالصُّخُورِ
التِي حَطَّهَا القَلْبُ
سَيْلاً؟

تَغَيَّرَ طَقْسُ زَمَانِي
كَثِيراً ،وَقَفَّ رَذَاذٌ يُرَقِّصُ
فِي نَهْرِ أَنْفُسِنَا وَتَرَ
الذِّكْرَيَاتِ ،وَصِرْتُ
أُجَدِّفُ مِنْ دُونِ مِلْعَقَةٍ فِي
فَنَاجِينَ
تُبْحِرُ
أَبْعَدَ
مِنْ أَرَقِي

يابسة ثانية

انْخَفَضَ النَّبْضُ
فِي النَّهْرِ
ذَاكَ المَسَاءُ ،
وَصَارَتْ مِيَاهُهُ تَلْعَقُ
أَرْجُلَنَا ،وَتَحَدَّقُ
فِي
مُقْلَتَيَّ :
أَيُعْقَلُ أَنْ
يَنْظُرَ المَاءُ لِلمَاءِ؟

لاَبُدَّ
أَنْ يَغْزُرَ الفَيْضُ
فِي شَهْوَةِ النَّهْرِ
بِالدَّمْعِ ،
حَتَّى أَمُوجَ
بِأَكْثَرَ مِمَّا تُطِيقُ
القَصِيدَةُ..

أَيْنَ سَأَمْضِي
بِصَمْتِي وَالأُسْطُوَانَةُ
مِنْ دُونِ شَوْكَتِهَا
لاَ تَئِنُّ..؟

سَنَرْفَعُ فِي النَّهْرِ
نَبْضَهُ ،فَيْضَهُ ،دُونَ
قِيَاسِ المَجَسَّاتِ ،نُنْفِقُ
مِنْ دَمِنَا حِينَ
نَعْشَقُ
نُنْفِقُ أَكْثَرَ
أَكْثَرَ
مِنْ عُمْرِنَا المُتَسَرِّبِ
كَالمَاءِ بَيْنَ
الأَصَابِعِ ،نَنْطِقُ
مِنْ دُونِ أَنْ نَفْتَحَ الشَّفَتَيْنِ
عَسَى حَجَرٌ..

ثُمَّ
قَدْ نَتَبَادَلُ بَعْضَ
النَّهَارَاتِ
لَيْلاً

وَبَعْضَ اللَّيَالِي
نَهَاراً ،
فَأُهْدِيكِ شَمْساً
وَتُهْدِي
إِلَى سَهَرِي
قَمَراً

لاَ أُرِيدُ
لإِيقَاعِ نَهْرِي أَنْ
يَنْتَهِيَ بِمَجَادِيفَ
مِنْ عَرَجٍ

لاَ أُرِيدُ إِذَا مَا
تَعَرَّيْتُ أَنْ تَرْتَدِينِي
السَّمَاءُ الَّتِي
لاَ تُجِيدُ حِيَاكَةَ
إِلاَ
الغُيُومْ !

محمد بشكار

السَّرديّات في الأدب والتَّاريخ والفينومينولوجيا

سعيد بنكراد

الباحث السيميائي والمترجم المغربي سعيد بنكراد، يطل على قرائه بكتاب جديد، صادر عن المركز الثقافي للكتاب للنشر والتوزيع، وقد اختار أن يسميه «السَّرديّات في الأدب والتّاريخ والفينومينولوجيا»، ويكتنف هذا المؤلف بين دفتيه فصولا خمسة، تتناول بالتحليل تشكل المحكيات ومظاهرها وغاياتها ووظائفها. فالمحكيّات حسب المؤلف: لا تحدّثنا عن أشياء ألفناها في واقعنا، بل توجّهنا إلى تلمّس موقعها داخل التّجربة الإنسانية، أي إلى معانيها. إنّنا نكتشفُ الكثير من «حقائق» وجودنا استنادا إلى ما تُقدّمه استيهاماتُ التّخييل. فأصالة التخييل ليست مستمدّة من «غرابة» العوالم التي يقوم بتمْثيلها، إنّها في واقع الأمر تُقاس بقدرته على العودة بالذات إلى شرْطها الواقعيّ.

وذاك مصدر كَونيّة السرد، فهو حاضر في كلّ شيء، إنّه وصف لتفاصيل الحياة اليومية، وهو أيضا أداة لاستحضار وقائع الماضي، وأداتنا من أجل تصريف أحلامنا ورغباتنا وأوهامنا واستيهاماتنا. وهذا ما يجعلهُ وسيلة من أجل الاحتماء بالذاكرة ووسيلة لمُواجهة الآتي أيضًا. إنه الذّهابُ إلى الماضي من أجل عودة آمنة إلى الحاضر. وبذلك كانَ، في كل تجلّياته، «أداة توسُّطٍ مُثلى بين الحياةِ والموتِ».

وليس غريبا أن يسعى الرّومانسيّون الأوائل إلى البحث عن الأصول الأولى لمحْكيّات النّاس، أي البحث عن الحكاية الأولى التي تفرّعت عنها كلّ حكايات الكوْن. إنّها الرّغبة ذاتها التي دفعت بعض اللسانيّين إلى البحث عن لسان أصل منه اشْتُقّت كلّ الألسنة. يتعلقُ الأمر في الحالتين معاً بسبيل نحو العودة إلى الواحد المطلق، أو هو التّوق الدّفين الذي يدفع النّاس إلى استكشاف لحظات الخلْق الأولى. إنّ وضْعَ اليدِ على الأصل هو وضع اليد على الشّكل الأول للمعنى. فنحن نعيش في الأرض قصّة واحدة: قصّة الحبّ والحقد والكراهيّة، والمودّة والرّحمة والتسامح، وقصّة النضال من أجل العزّة والعيش الكريم والدّفاع عن وحدة الأوطان أو العمل على تمزيقها، وهي أيضا قصّة الكثير من المعارك الصّغيرة التي تؤثث معيشنا اليومي.

لم يكنْ روميو وجولييت سوى صيغة سرديّة للحبّ عندما يصل حدوده القصوى ويصبح هوًى ولوْعة ولاعجا. ولم يكن أوديب في الأسطورة سوى استعارة كبرَى ضمّت في ثناياها القدر والكثير من المشاعر المكبوتة نحو الأمّ بالرّغبة والامتلاك، ونحْو الأب بالمقتِ والإقصاء. فما «تختزنه التراجيديّات الكبرى من تشويق هو أنّ أبْطالها يتوغلون في الهاويّة عوض أن يُفلتوا من قدر فظيع، فهُم لا يملكونَ أيّة فكرة عمّا ينتظرهم». إنّهم بذلك يُشبهوننا، فشرطنا في الواقع ليس مختلفاً عن شرطهم في التّخييل، فنحن أيضا نُصرّف أقدارَنا في ما نرويه عن أنْفسنا: نتخلّصُ من أهوائنا بوضعها في نكاتٍ أو مستملحات أو نوادرَ عابرة. «لذلك كانت حقيقتُنا في التّخييلِ أشدّ غرابة ممّا نعيشُه في واقعِنا».

ومن أجل ذلك كان علينا الدّفع بالتّجريد إلى حدوده القصوى لكي نُمسك بما يوحّد بين جميع النّاس في فضاء الأرض وفي متاهات الزّمن الكونيّ، ما يوحي بوجود نقطة لا شيء بعدها، إنّها «سِدرة المنتهى» حيث جنّة النّعيم أو جحيمُ المأوى، فتلك هي بؤرة الحياة ومنشؤها ومنتهاها. إنّ هذه النّقطة وحدها يُمكن أن تُحافظ على التّوازن عندنا عبر إسقاطِ قصص نتلمّس فيها حالات للبدء والنّهاية داخل زمنيّةٍ لا تتوقف أبدا.

إنّ «الظاهرة السرديّة» شاملة لكلّ أشكال وجودِنا على الأرض. ووفق ذلك حاول رواد السرديّات الأدبية الإمْساكَ بالثابت في المحكيات من أجل تحديد الخاصيّات التي تميز النّشاط السرديّ. لا يعود الأمْر إلى تقنيّات اعْتاد السّاردون استعمالها من أجل بناء حكاياتهم فحسب، بل كانت أيضا محاولة لضبط شكل حضور الإنْسان في الفضاء العموميّ. إنّنا نضع كمًّا زمنيّاً معدودا في مُمارسات نحاول البحث فيها عن حبكة هي أداتنا في بناء قصص مستقلّة.

بل قد يكون التّاريخ ذاته من طبيعة سرديّة أيضا، فهو في عرف الكثيرين سلسلة من المحكيّات هي وحدها أداة المؤرّخ في وضع اليد على معنى الحدث وموقعه في الذاكرة، كما تصوّرَ ذلك هايدن وايت. فلا قيمة للوقائع، في تصوّره، قبل سرْدها، أي قبل أن تصبح محكيّا يدين أو يُثمن أو يحتفي بحدث أو بواقعة. فما يكتشفه المُؤرخ ليس سلسلة من الوقائع، بل شكل، أي صيغة تشْخيصيّة هي ما يحتفظ به. وتلك هي بؤرة "الحقيقةِ" في الحدث التاريخيّ. إنّ تاريخ الظّلم في الأرض لا تجسّدُه مفاهيم تصف وقعه على حياة الناس، بل يودعُ في محْكيّات تروي شكل التّفاوتاتِ بينهم في مَتاع الدّنيا.

ومركزيّة القصص هاته هي التي دفعت بول ريكور إلى جعْل الزّمن وثيق الصّلة بالسّرد، فهما في تصوّره مترابطان ومركزيّانِ في صياغة تجربة المعيشِ الإنسانيّ في كلّ تجلياته. إن ترابطهما هو المدخل الرّئيس نحو تحديد مضامين التّجْربة الوجوديّة في الأرْض. فالحنين والأمل والرّجاء والنّداء والنّدم والتّأسّي والكثيرُ من الانْفعالات، كلّ ذلك لنْ يُصبح قابلا للإدراكِ إلّا من خلال فعل سرديّ يتحقّق في سياقاتٍ، أيّ في محكيّاتٍ هي بؤرة معناه. فذاك هو شرط الكشف عن شكل العلاقة القائمة بين الإنْسان وزمنيّته الخاصّة والعامّة.

وإلى هذه السرديّة المعمّمة أيضا استندتْ الفينومينولوجيا القصصيّة عند ويلهام شاب. لقد كان هذا الفيلسوف يعتقد جازما أنّ «الذاتَ لا تتعلم ولا تدرك العالم الخارجيّ إلا ضِمْن مآل، ويمثّل هذا المآل أمامها ويُنظم باعْتباره محكيّا. فنحن جزء من محكيات العالم، فيقيننا الوحيد هو أن نُروى. فما نسميه "ماهيّة" أو "طابعا" هو ما يقوم النشاط الفكري بتسريبه إلى المحْكيّات وهو ما ينتزعه منها».

وسيشْهد العالم عودة قوية «للسرديّ» مع بداية التسعينيات ضمن ما أطلق عليه «المنعطف السرديّ». فقد عُدّت الإستعانة بالمحكيّ عصب السّتوري تيليْنغ، كما تمّ تداوله في أوروبا وأمريكا منذ تسْعينيّات القرْن الماضي في مجالات التّسويق والإشهار والسياسة، فالمحكيّ هو طريقته إلى وجدان المتلقي. إنّها رؤية جديدة للذهاب بآليات التحكم إلى حدودها القصوى حيث يُصبح الإنسان طيّعا في ذاكرته ومفصولا عن شرط وجوده في الرّاهن في الوقت ذاته.

وذاك جزء من شرط وجودنا في الأرض، فالناس ميالون، في التّواصل الإنساني، إلى ما يُثير انفعالاتهم لا إلى ما يُحرّك آليات العقل عندهم. وبذلك تُصبح الحكاية عند الإشهاريّ والسياسيّ والداعيّة وسيلة لبيع "مُنْتج" سيتحوّل عند المستهلك إلى سبيل للتّماهي مع العوالم التي تُبشّر بها الإرساليّة الدعائيّة في هذه المجالاتِ مجتمعة.

المشروع السردي للناقد المغربي سعيد يقطين

في كتابين جديدين صادرين عن دار فضاءات الأردنية

كتابان فريدان صدرا أخيرا عن دار فضاءات الأردنية، وتكمن فرادتهما في إحاطتهما بهالة الضوء، للمشروع السردي لأكاديمي وناقد مغربي يقظ ورصين، ألا وهو الدكتور سعيد يقطين.

أول الكتابين اتسم بعنوان «في مرايا القراءات النقدية: المشروع السردي اليقطيني»، أما الثاني فاختير له عنوان «التحليل السردي اليقطيني في مرايا القرّاءات النقدية».

يقف القارئ في كتاب «المشروع السردي اليقطيني» عند محطات تحليلية وتأويلية للمشروع السردي الذي بدأ بتشكيله منذ بدايات اهتمامه بالأدب والكتابة، مقدما «القراءات التي ركزت على المشروع في خطوطه العامة نظريا وتطبيقا، والنظر إليه من خلال مؤلفات بعينها».

يقطين يذكر أن هذا المؤلف ثمرة فكرة راودته قبل سنوات بعد أن تجمعت لديه عشرات القراءات التي قام بها نقاد وباحثون وطلبة الماجستير أو الدكتوراه من مختلف البلاد العربية حول مختلف أعماله وهي تتطور في الزمن، عبر التركيز على كتاب واحد أو أكثر، خاصة وأن هذه الأبحاث تدور «في نسق واحد، في مناقشتها من خلال موضعتها في محور عام يتركز على «النقاش السردي» باحثا عن طبيعته ووظيفته في الثقافة العربية».

وأكد سعيد يقطين في التقديم عن نفس الكتاب، أن كل مؤلفاته «متكاملة ومترابطة. في بعضها منطلقات أولية تطورت وتعمقت في كتب لاحقة، بشكل ضمني أو مباشر»، وعليه فإن «عزل بعض الكتب عن غيرها لا يعطي إلا صورة غير مكتملة».

وأمعن في الإضاءة قائلا: «لا يمكن قراءة «انفتاح النص الروائي» بدون «تحليل الخطاب الروائي». فالكتاب الأول امتداد للثاني وتوسيع له. ومن لم ينتبه لما ورد في «تحليل الخطاب الروائي» من إشارات إلى «انفتاح النص الروائي»، لا يمكنه وضع الكتابين في نطاق العلاقة بينهما نظريا وتطبيقيا. كما أن العلاقة بين هذين الكتابين هي ما تجمع بين «الكلام والخبر» و«قال الراوي»، اللذين لا يمكن أن يقرأ بدون اعتبار «الرواية والتراث السردي» الذي جاء حلقة وسطى بين «التحليل» و«الانفتاح» و«الكلام والراوي»، وهكذا دواليك».

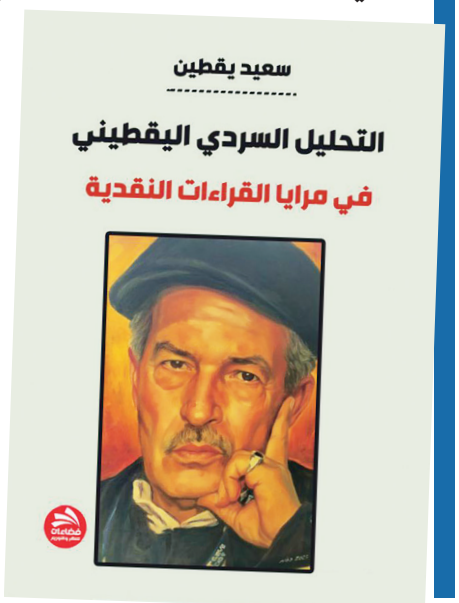

أوراق من ليليات هنري ميشو

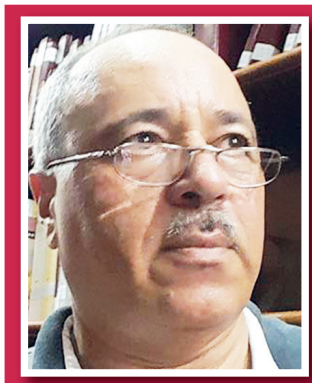

محمد مستقيم

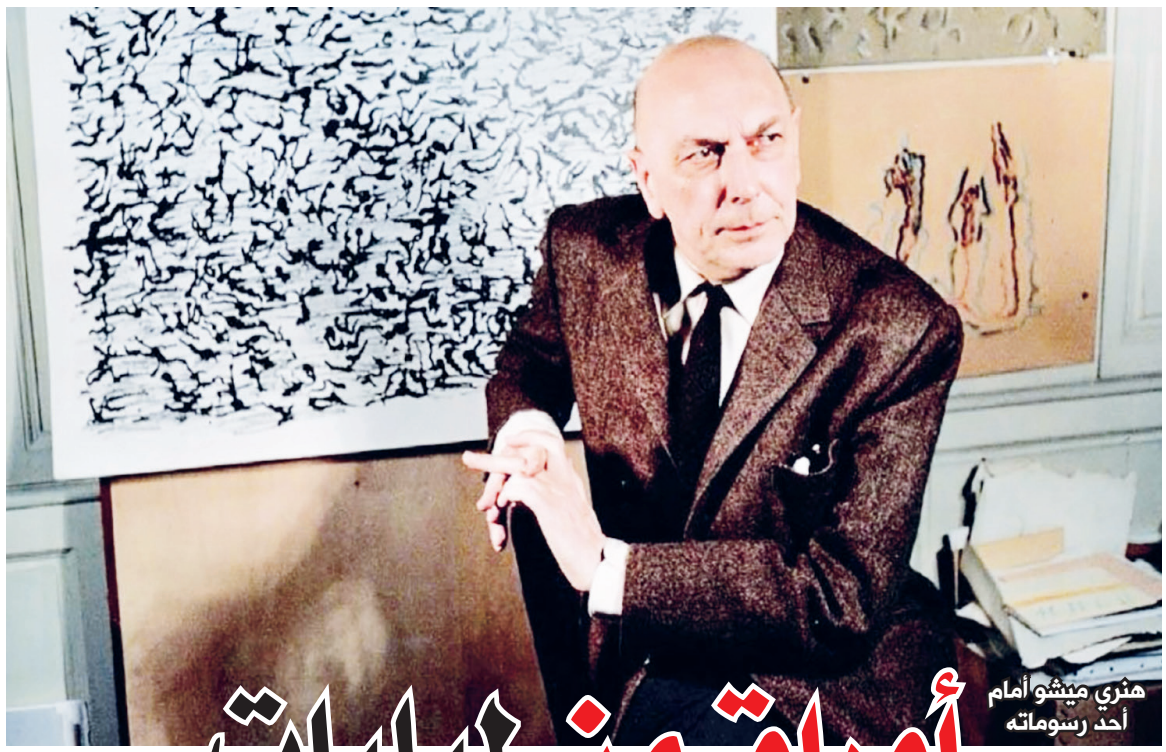

هنري ميشو أمام أحد رسوماته

كيف سيقتنع الرائي بأن الفراغ قادم من جهة الليل، وأن قراب الصمت جاثمة فوق أعشاب الحدائق المظلمة؟.. ألم يأت الفراغ من جبهة الاختلاف والانفصال عن جذور الاستسلام لموكب الجماعة؟ ذاك ديدن هؤلاء الذين يسهرون عند الشواطئ المكرسة لاحتضان أمواج ما بعد المعنى... لا يسعى «هنري ميشو» في كتاباته الليلية إلى تقديم أجوبة نهائية عن كل ما يحيط بجنبات الروح من ذبذبات مدمرة لحواس اللحظة الأخيرة.. بل يدعو قراءه المحتملين إلى البقاء قليلا قرب النهر لتأمل مارآه الحكيم الإغريقي هيراقليطس وهو يستحم في المياه المسافرة شرقا نحو حدود الأرخبيل الآسيوي..رأى هذا الحكيم الأيوني أن الحروف غير مقيدة بسلاسل السرد التقليدي –أو كما يقال اليوم بسرديات الانتظار- مادامت اللغة غير قادرة على البوح بكل الحكايات الصغرى أمام الأعشاب الموحشة..

فأن تكتب في حضرة النهر الهيراقليطي معناه أنك تنفلت من عقال المعاني المطروحة عند هذه الضفاف المهجورة من طرف حجاج الشرق القديم..إن من يبحث عن الذات في تربة أقاليمه العميقة عليه أن يغادر بندول «آرتور شوبنهور» الحزين فلاحاجة للتدحرج نحو الضجر وأنت تجني نبات المفازات القريبة من مناطق الشك العليا..إن الألم أنشودة أبدية ترافق كل من يعشق السهر عند أعتابه الداخلية..لا خوف من الألم..الألم جرس للدخول إلى بهو الحقيقة القادمة.. في مصنفه العميق «الليل يهتز» يرفع «هنري ميشو» ظلمة المساء إلى مصاف النفس الناطقة التي وصفها المفكر الاستاجيري «أرسطوطاليس» بأنها المبدأ الذاتي المحايث للجسم بالقوة ولاتهبط إليه من عالم الروح كما زعم سلفه «أفلاطون» في جمهوريته الفاضلة.. النفس في زحفها المحايث تناجي حدود الهيولى وهي ترحل نحو الفراغات القصوى لتلتحق بفلول الشعراء المطرودين من ساحة الأغورا..عندما يقرر الشاعر أن يعتنق شريعة الحرف يعتلي خشبة الروح المقدسة ويصطحب معه بقايا خوفه العنيد..

لاخوف بعد اليوم في الطريق نحو قصائد الدهشة الأولى..الخوف يخشى الفوضى وضبابية الكون كما تخشى الطبيعة فراغ الأسطقسات الأربعة..أيها الماء، أيها الهواء، أيها التراب، أيتها النار المقدسة..لم يكن الليل أبدا مظلما بل كان السواد بياضا حولته آلهة الشمس إلى جداريلي لتحمي به من كان يدورفي فلك الضوء الآتي و انتظار ظهور طائرمينيرفا..

تقول حكمة المساء القديمة بأن شعاع النهار يسمح للعقل بأن يطير نحو الأعالي مختبئا بين جوانح الطائر المقدس..في الليل تغادر اللغة محاجر الامتلاء لتختبر قلق العزلة المرحة وتتحرر الروح من سلاسل اليقين وسكينة الضياع لتدخل عالم التجارب القادمة... لا مفر من الضوء الداخلي وأنت تقف عند الأبواب الموصدة لمدينة اللوغوس..الليل لا يحجب الرؤية عن القادمين من شرق النهر الكبير..الليل يحول دون الإجابات الممزوجة برطوبة الاطمئنان وسيولة الحب في عصور مابعد الحداثة.. أيها العشاق المسائيون لاتفرطوا في صلابة جدران الصداقة ولاتصدقوا من يلوح بتغيير نواميس الفضيلة.. فمابعدها ليس سوى شظايا كانت مخبأة في كهوف المدن الإغريقية ، لم يفطن الحراس للظبية التي أكلت أجزاء من مخطوطة «نيقوماخوس».. بقيت التعاليم مبثورة تحاكي شذرات الطبيعيين السبعة.. فاعتقد الناس أنها وحي نزل على المعلم الأول أثناء اعتكافه في مغارات الأولمب..هل لازال حكماء الإغريق يسكنون لاشعور العالم المعاصر؟ ..في الليل يمجد الرائي كل الفراغات التي تتيح له ولوج مأوى الكينونة القصوى...ثم ماذا يا ميشو عن لغة الليل أليس من حق هذا الكائن أن يبدع علاماته الكابية أم أن عشاق اللامرئي يسعون إلى الكشف عن المساحات الخفية قرب جنة عدن ؟ أكيد أن اللغات البديلة لن تغادر بلاغة الصمت المسائي وهي تسعى نحو اللااكتمال ولو تحت خفوت الضوء المخبأ بين خشب الأحاسيس و أروقة الحلم الداخلي. لم يسع الليل أبدا للحصول على حصته الزمنية بل كان دوما طورا من أطوار الكينونة...يذكر عشاقه بلغز النهاية ولحظات الغياب القادم لكنه في نفس الوقت يشكل مهرجانا داخليا لتحفيز النفس على التجدد والركض نحو ميلاد آخر..تتصادى هذه الإلماعات الشذرية لهنري ميشو مع مادبجه معاصره «لويس فردينان سيلين» في رحلته الزمنية التي اخترق فيها مفازات الجسد وسافر إلى آخر الليل..ترى ماذا اكتشف هذا الرائي وهو يقف عند فراغ العتبات القصوى؟ كابد سيلين أهوال الحرب العالمية الثانية وهو يلبي نداء الواجب..حمل السلاح كباقي المشاة المتطوعين ..

أطلق النيران صوب أعداء الحياة..هرب من بطش فلول الفوهرر ثم أصيب وغادر ميدان المعركة ..خبر سيلين أسرار الجسد الآدمي وجروحه عبر دراسته للطب..

عالج أعطاب الناس البسطاء في أحراش افريقيا ومستعمرات الأم فرنسا التي لازالت تحمل شعلة التنوير إلى جانب أعشاب الخراب الجافة. لازالت الأم فرنسا تداوي جراح الوعي الشقي للرجل الأبيض وتمسح دموع المركزيات العظمى وهي تطبخ لحوم الهنود الحمر على نار معاداة السامية.. ثم ما لبث سيلين أن عاد إلى أحراش الليل يستنطق سكونه وظلمة الحياة الرتيبة. ليل سيلين يشبه زمن ميشو في تكسير المعنى وتشذير الحياة بشكل رمزي وعميق. هناك في أمكنته الاعتيادية يتجاوز الإنسان ما هو مألوف وثابت في الحياة اليومية، ويغرق في حالة من الغموض واللامرئي، حيث تتلاشى الحدود بين المفاهيم والثوابت المعرفية التي تميز النهارمن الليل..هناك تنهض تجربة أخرى لتخرق قوانين الحياة المعتادة وتفتح أبوابًا جديدة لاكتشاف فضاءات لانهائية لأحواض المعنى بعيدًا عن المألوف...

رحلة سيلين ليست سفرا في الزمن الليلي بل هي مسار أنطولوجي يؤرخ لفعل الكتابة الليلية المحتفية بالفوضى وتفكيك الحدود بين الأجناس الوهمية في التاريخ السري لحبر الأمبراطوريات. كتابة الليل حضن للأحلام المجهضة بفعل اندماج الواقع بالخيال ومساحة شاسعة تخفي مسارب تحتية تؤدي إلى أعماق الرغبة البشرية في استكشاف مجاهيل العوالم الممكنة... عودة إلى ميشو عاشق طيور الليل المبللة جوانحها ببحيرة الوديان العميقة..

فهل أتاك حديث «السيمورغ» وأنت تغوص في براري الورق الشفاف لتدبج نصوصا يهتز فيها المساء نحو مدارج الحكمة القديمة؟ سأضيف إلى أوراق رحلتك مادبجته أصابع «فريد الدين العطار»، هذا القادم من الأحراش الزرادشتية، في مدونته العميقة «منطق الطير» وهو يرعى موكب السيمورغ عبر فيافي الوديان السبعة: وادي العشق حيث يمارس المريد شغف الانغماس في هوس التجارب الداخلية.. وادي المعرفة وطرقه المؤدية إلى الشك والارتياب وقلق الكينونة..وادي الاستغناء حيث تقفد القيود صرامتها الخارجية لترتد إلى صلابة الروح..وادي التوحيد حين أدرك أفراد الموكب أنهم ليسوا سوى طائر السيمورغ يحلق فوق أجسادهم..وادي الحيرة مرتع السفرالانهائي الذي يرتد من الخارج إلى الداخل..

وادي الفناء فيه تتخلى الذات عن ذاتها وتذوب الحكاية عند جنبات الحبر.. يجتاز موكب الطير المريدة هذه الوديان السحيقة بحثا طائرهم السديمي مثلما يبحث الرائي عن ذاته..تكتشف الطيور الناجية من أهوال الرحلة أنها ليست سوى اسم آخر للمبحوث عنه ويكتشف الرائي بعد رحلة الاغتراب أنه ليس كائنا منفصلا عن ذاته القريبة من بعده..هناك يتشظى المعنى وتنفجر قراب الامتلاء لتلتحق مياه الفراغ بنبع الكينونة...هل أنت مستعد ياميشو للتخلي عن هذه الأوراق كي تتحول إلى وسيط فارغ لنقل شظايا مابعد الحقيقة ؟ ليس في ثنايا هذا الركام سوى أصداء أنين صخرة اللايقين وهي تذوب عند مشارف النهر الهيراقليطي..واعذرنا إن أعدنا تحبير هذه الشظايا لتكون شاهدة على رحلة لن تنتهي..لكنها حتما تتوج تجربة رائي لايمل من مدح نجوم الحيرة التي قادت طيور اليقين نحو مصائد عصرنا الناجي من شظايا صخرة سيزيف...

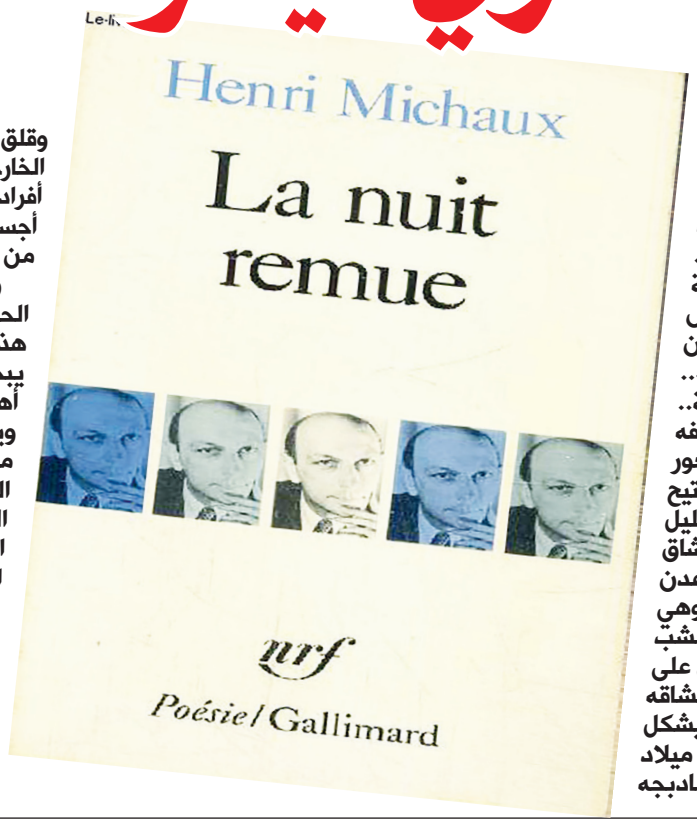

تونس الثالثة

د. أحمد شرّاك

ليست هي المرة الثالثة (بالمعنى العددي) التي أرحل فيها إلى تونس، بل الثالثة من حيث الأزمنة والسياقات التي اختلطت رموزها السياسية وتحولاتها في الزمن عبر مجموع سنواتها (32 سنة)، بدءًا من سنة 1993 التي اندهشت فيها من تونس حينما زرت مدنا ومناطق ومجالات في عهد الرئيس بنعلي(1) الذي كان حديث العهد بانتزاع السلطة من مؤسس الجمهورية وبانيها الحبيب بورقيبة، كنا زرنا منزله في مونستير، حيث كان يقيم إقامة جبرية بعد أن انتزع منه بنعلي هيبته ورمزه وتاريخه ومجده الشخصي (كشخص وشخصية).

لم أتشرف بالنظر إلى تونس في عهده إلا في بداية هذا العهد المشفوع بالأمنيات والشعارات التي عادة ما يرفعها المنقلبون من أجل الاستمالة والإغواء والإغراء.. وبمجرد أن تثبّت أقدامهم، تتعرى بطونهم وتظهر تضاريس وجوههم الخفية.. ها هم يعيدون الإنتاج الفعلي ولا يتقدمون قيد أنْمُلة في إشباع رغبات الشعب، فلا درس جديد في التنمية، أما العمران فثابت إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها: لا معالم جديدة ولا بنية تحتية قد تطورت، هكذا يقوم العسكر بالثورات المفرغة من كل تثوير للحال والمآل..

وفي المرة الثانية، وبعدما قامت الثورة التأسيساتية فيما أطلق عليه بـ»الربيع العربي»، كانت تونس مُؤَسِّسة ومدشّنة للحركات الاحتجاجية المليونية التي ستعصف بالرئيس بنعلي. إن تونس المشتقة من أرض الطمأنينة والسكينة لا تعني الخنوع والدموع.. فهل ثمرات الثورة تقطف على التو ؟ لا أعتقد عموما وإن كنت أظن أن الفواكه تجنى بعد حين، إنه موسم فلاحي قد يأخذ وقتا وأمدا، بعدما زرنا تونس بعد سنوات (2017)(2) في عهد القايد السبسي، وجدناها كما رأيناها سنة 1993، لا شيء يثير الدهشة والسؤال؛ أين ذهبت صرخات الحناجر المليونية في 2011 ؟ لا بنية تحتية قد تغيرت أو -على الأقل- أدخلت تحسينات، فالعاصمة تونس سواء العتيقة أو الجديدة على حالها، ما زالت هناك تجمعات واحتجاجات صغيرة قرب جامعة تونس، وأرجاء المدينة الجديدة بشكل مخصوص. ها قد مارس السلطة رؤساء عديدون بألوان ومعاطف مختلفة بعد قيام الثورة، دون جديد.. وها القايد السبسي الرجل التسعيني آنئذ، يشكل حالة استقرار.. هكذا تونس تستقبلك في جنوبها بقفصة وتونس بالعاصمة. لقد كنت تعتقد بأن تونس أستاذة(3) في التأسيس الثوري والانتقال الديمقراطي.. لكن لم تطرح سؤالا هاما وهو علاقة الثورات بالتنمية؟ والتقدم؟ والحداثة ؟.. ألم يصفق الشعب العربي لثورات رفعت شعارات كبرى كثورة عبد الناصر وثورة القدافي في مصر وليبيا.. وسوريا، ولكن ماذا بعد ؟ لقد تبخرت الأحلام الوردية في العالم العربي ولكن هذا لا يعني أنها ماتت بدون نشور، ولا يعني أن المجتمعات التي قطعت أشواطا بهدوء دون زعم بالثورة أو ما شاكلها لم تحدث طفرة في التقدم والتنمية، لعلها مفارقة تدعو إلى السؤال.

ها أنت بعد ثماني سنوات في تونس مرة ثالثة(4) لقد وصلتم متعبين، وداهمكم

الليل وأنتم في الطريق إلى مدينة سوسة (الإقامة الأساسية)، نصلها في منتصف الليل ونستقر في فندق الشرق (أربعة نجوم) في الغرفة 425، وهو يقع على شاطئ البحر المتوسط حيث داهمنا النوم بدون استثناء.

في يوم الاثنين 25 صباحا كان عليكم أن تختار ما بين الماء المالح (ماء البحر) والماء الحلو (ماء المسبح)، حيث تأخذك لعبة التماثل والتشابه الجغرافي مع شواطئ وطنك فيبدو لك الشاطئ

وكأنه شاطئ مرتيل أو السعيدية... حيث يجمع بين هذه الشواطئ البحر المتوسط المخترق لبلدان عديدة بل وقد يزداد التشابه في كون تونس تنتمي إلى المغرب الكبير كما المغرب حيث أن الحدود فرقت بين شعوب المغارب وجعلت جواز السفر شرطا ضروريا للسفر بينَ المغارب وهو أمر قد يبدو غريبا، إلا أن الواقع لا يرتفع.

في العشية من ذات اليوم تذهب مع الجماعة عبر رحلة بحرية من سوسة الفندق إلى سوسةٍ مارينا، جولة بحرية تعطي للترحال معنى متعدداً ومتعة بصيغة الجمع، وأنت تمتطي كل وسائل النقل في الجو والبر والبحر، تذكرك هكذا جولة من جولاتك المماثلة في أبو ظبي وروسيا وتركيا وماليزيا والطيلاند، والولايات المتحدة الأمريكية عبر جولة في نهر ميسيسيبي الأكبر في العالم.. هكذا جولات تجعلك تشم رائحة البحر بكل التفاصيل وتمتع الطرف بزرقة الماء، وتكحلها بما تشهد وتشاهد..

في مارينا حيث المقاهي منتشرة على الجنبات تحتسي قهوة بطعم تونسي، وتتجول بين المتاجر حيث تشتري قبعة تونسية، وهي مشهورة عندنا في المغرب بهذه التسمية: الشاشية التونسية، فحقوق الطبع محفوظة للإبداع التونسي والثقافة التونسية سواء هنا أو هناك، بعيدا عن الانتحال أو الزعم كما يفعل بعض الناس (وليس الشعوب) في هذا العالم القريب منا.

في مارينا يكثر المتجولون والمتجولات، فلا تلمح تحرشا بالنساء، لا مكان لهكذا سلوك، فالنساء هنا قطعنا أشواطا في التحرر الاجتماعي والثقافي والاقتصادي.. ولغة الجسد لا تكشف عم تيسر من الممتلكات الجسدية، إلا أنه مع ذلك، فقد لمحت بعض النساء يلبسن الكولون، وهو ذلك اللباس اللاصق على الجسد جاعلا ممتلكاته خاصة السلفية أكثر بروزا، مما يثير كثيرا من الانزياح إلى التساؤل عن علاقة المضمر بالمظهر والداخل بالخارج، أقصد العلاقة بين اللباس الداخلي واللباس الخارجي، ما هو حميمي وما هو عمومي..

لم أجد جوابا بقدر ما أنا هنا أستفهم وأستفسر. عندما عدت إلى فاس وجدت إشهارا لهكذا لباس (الكولون) إلا أن السؤال دائما هو ليس عدم الارتداء وإنما كيف نرتدي، هل الكولون مباشرة، علنية ؟ أم يكون مشفوعا بجلباب أو معطف يستر التضاريس والثقوب والضفاف.

نعود إلى الفندق عبر طاكسي صغير لنكتشف التسعيرة قد تخضع للتفاوض مع السائق، إذا لم يُشغل العداد، وفي كل الأحوال فثمن المسافة ليس كثيرا فهناك تماثل إلى حد بعيد بين سعر الطاكسي في سوسة وفاس.. تعود إلى الفندق متعبا لتأخذ وجبة العشاء وتستريح، إذا لم تأخذ وجبتك مع الأوائل فإنك لا شك ستنتظر حتى يفرغ الفوج الأول؛ فالفندق مكتظ والسياحة عنوان دال في القطر التونسي الشقيق.

يوم الثلاثاء كان يوما حراً بدون برمجة حيث قضينا اليوم في الشاطئ لقد كان البحر هادئا يستفز الناظر إلى العوم والاستمتاع.. إلا أن هناك من فضّل ممارسة الألعاب الترفيهية والتسليات المرتبطة بالمكان، ومنها التحليق بواسطة المظلة (Parachute) لمدة عشر دقائق في الهواء فوق البحر، سواء بالمفرد برفقة الكوتش أو برفقة زبون مثلك. لم أجرؤ على المبادرة تهيباً خاصة وأن منسوب الصحة غير مشجع، لكن فضولي جعلني أتابع هذا المشهد، وحينا رجعت إحدى المستفيدات من الجولة الهوائية سألتها عن شعورها فأجابت أنها تجربة رائعة حقا، تعطيك إحساسا بأنك تملك البحر من كل الأبعاد عمقاً وسطحاً وعلواً، وأن الثمن مغر أيضا لا يتجاوز 90 دينارا تونسيا حيث كان الدينار يساوي 4 دراهم مغربية.

يوم الأربعاء كان عامرا بالتجوال حيث ذهبنا إلى مدينة نابلْ ومدينة الحمامات، وبمجرد ما لمحت الجماعة المدينة من نوافذ الحافلة صاحت الجماعة، في نفس الوقت تقريبا، لعلها مدينة أصيلا المغربية !!

لعل لعبة التماهي والمقارنة والمشابهة بين القطرين المغربي والتونسي تعود إلى كون المغاربيين يسكنهم هذا الميل، فهو بلد واحد فرقت بينهم الحدود والسياسات والتحالفات.. فالرحلة تتم في عهد قيس سعيد أحد الرؤساء بعد الربيع العربي، والذي يبدو أنه متحالف مع جيرانه في المغرب الأوسط، ولذلك اقتبل زعيم الانفصال الصحراوي في الشقيقة تونس دون مراعاة علاقات التواشج التاريخية بين المغرب وتونس، نتجول في جنبات مدينة الحمامات على حافة شاطئها نستريح قليلا، نتأمل هذه المشابهة الدالة، والتي تجعل الإرادة البشرية تخدشها كما تفعل السياسة التونسية هنا والآن تجاه المغرب، وحيث يُصرح رئيس الجزائر بأنه يحمي دولة تونس من الانهيار وكأنه وصي عن هذه الدولة وشعبها الذي شكل أول تحرك احتجاجي كثيف وعلى غير منوال في العالم العربي...

في يوم الجمعة تقوم الجماعة برحلة إلى تونس الجديدة في العاصمة وها المرشد التونسي يلح على التعريف بشارعين رئيسين وهما شارع الحبيب بورقيبة مؤسس تونس وشارع محمد الخامس ملك الاستقلال والتحرير. لقد ركز على هذا التلاحم الذي كان أما اليوم، وإن كانت القيادات متنافرة، فالشعبان متلاحمان، ولعل هذا الحضور المغربي في تونس دليلا لا غبار عليه، ليس هذا هو الوفد الأول بل هناك وفود سابقة وأخرى لاحقة، طوال شهر غشت 2025 حسب برنامج الوكالة السياحية بالرباط المنظمة لهكذا رحلات حيث تنطلق الطائرة من مطار الرباط سلا نحو تونس، ومن تونس برا عبر الحافلة إلى سوسة. إن طيبة الشعبين ملموسة، فالتونسيون يرحبون برشا ويتفاعلون كثيرا مرددين لازمة الخطاب التونسي: اللّه إعايْشَك، دعاء يحمل كثيرا من الود في طول العمر والحياة.

من ناحية أخرى لامسنا مستوى المعيشة بين المقارنة والمشابهة دائما فالمعيشة تتشابه مع المغرب في الأسعار، بل وفي كثير من المضامين والأنواع لأن العولمة لها دورها، لكن هذا لا ينفي الخصوصية في المطبخ التونسي خاصة الهريسة التي تحضر بكثافة في المتاجر كما المطابخ التونسية، قد تحمل معك عينة للذكرى.

إن لعبة التماثل والتداخل والتواصل بين الشعبين تصل إلى الرموز العلمية والثقافية فهذا تمثال ابن خلدون المؤرخ والاجتماعي الكبير ماثلا لشارع بورقيبة وهو عنوان ثقافة وحضارة في تونس، كما تجده ماثلا بفاس القديمة لعله جسر كبير بين الشعبين وبين الثقافتين وبين الحضارتين، ومن هنا فعملية المشابهة والمماثلة التي كانت تحضرني وتحضر الوفد بالكامل لم تكن عشوائية أو بدون صدا تاريخي وثقافي..

في العشية نذهب إلى بور سعيد حيث تصعَد إلى الأعلى كأنك تصعد جبلا من أجل احتساء قهوة في منتصف الصعود تقف لحظة لتأخذ صورة مع زنقة السنوسي ولعل الاسم هنا هو اسم أبي، لا أدري أي حَمولة رمزية يحمل الاسم هنا علما بأنه علم متواتر في الجزائر وفي ليبيا، حيث كان اسم آخر ملك فيها (إدريس السنوسي) الذي أطاح به القدافي في فاتح شتنبر 1969.. ليس هناك جواب على هذا التشابه في الأسماء إلا ما قلته سابقا بأننا شعب واحد بملامح وجغرافيا وتاريخ والأسماء.. إن احتساء قهوة في هذا الجبل (مكان مرتفع) ينسيك تعب الصعود والازدحام خاصة وأنك متعب بعد زيارة قرطاج ومسرحها.

تعود إلى سوسة مقر الإقامة الثابتة بعد هذه الرحلة الرائعة متعبا كالعادة من أجل الراحة.

أما يوم السبت فهو يوم حر كيوم الأربعاء، قضيناه على شاطئ البحر نستودع سوسة ونستودع تونس.

أما يوم الأحد (اليوم الأخير في هذه الرحلة)، فكان الاستيقاظ باكرا في الرابعة والنصف صباحا للسفر نحو مطار تونس، حيث توقفنا قليلا في الطريق لتناول فطور الصباح.. تفصل بين المطار وسوسة حوالي 140 كيلومتر قطعناها بالحافلة كما كان الحال في الأحد الماضي يوم الوصول، ولقد كانت هذه المسافة فرصة أخرى لوداع تونس إلا أن وداع الجماعة لم يكن في مطار الرباط رغم لقاء أسبوع، ينتهي بنهاية أسبابه، وهذا أمر لاحظته في كل السفريات والرحلات، حيث أن أواصر المودة تنتهي بانتهاء الرحلة سواء أكانت أكاديمية أو ثقافية أو سياحية.

إن الرحلة إلى تونس وغيرها من البلدان العربية كرحلات بينية أي بينة الأشقاء بدأ يزداد منسوبها خاصة بين الدول المغاربية، حيث أماني شعوبها في الوحدة والاندماج وأن الحدود ما هي إلا حدود وهمية، ومن هنا فنحن في حاجة إلى هذه الوحدة وليس في حاجة إلى إضافة كيان آخر باسم تقرير المصير، وأن ادعاء الجزائر الرسمية بكونها تسعى إلى الحفاظ على انهيار الدولة التونسية ليته كان حفاظا على انهيار الوحدة المغاربية ليس البحث عبر مزيد من التوسع والزعامات البطولية الوهمية في الريادة والقيادة.

إن شعوب مجتمعات مغاربية هي في حاجة إلى التقدم والتنمية لا في حاجة إلى التوترات والصراعات وأن الريادة الحقيقية هي تطور هذه الشعوب وتنميتها ودخولها إلى عصر الحداثة بعيدا عن براديغمات بالية كتقرير المصير المزعوم، ولعل السياحة بين هذه الشعوب هي مدخل من المداخل الاقتصادية في تطورها وتقدمها بعيدا عن الادعاءات والشعارات التي انتهت مدة صلاحيتها. ولعل هكذا رحلة بين المغربين الأقصى والأدنى هو مدخل من مداخل الأماني الجميلة.

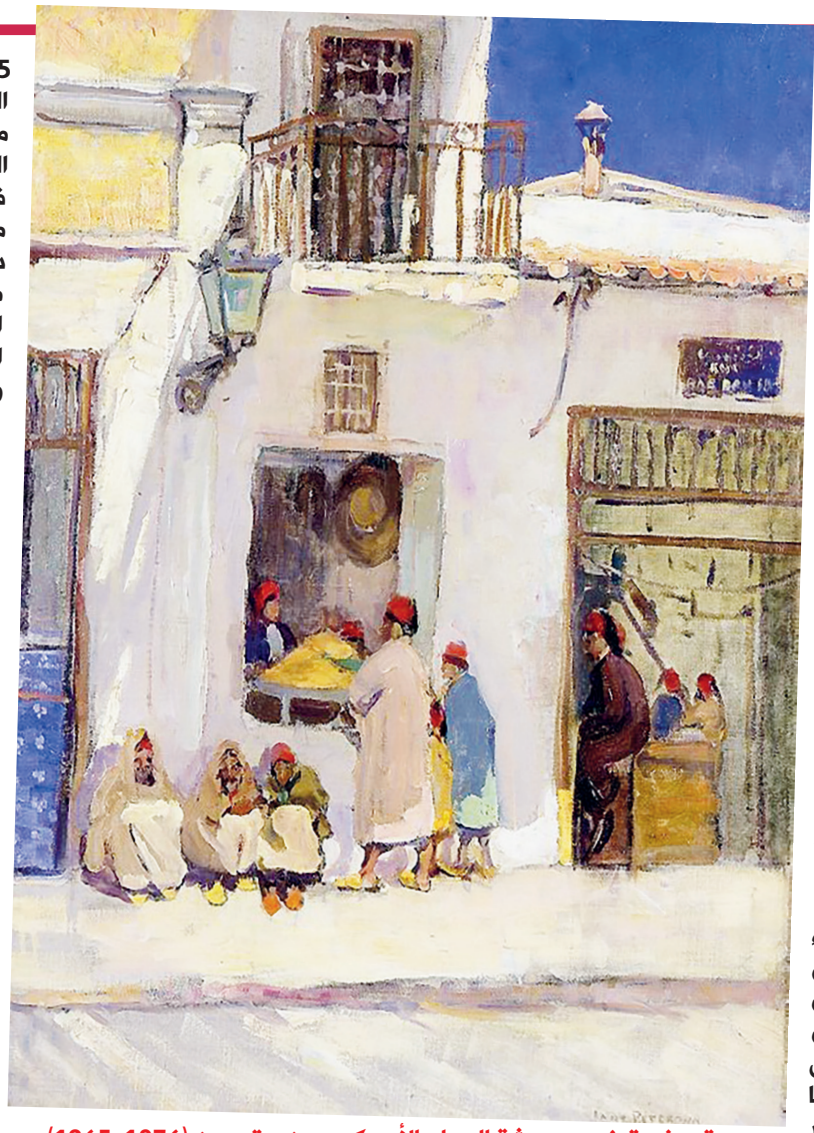

متجر في تونس.. بريشة الرسام الأمريكي جين بيترسون (1876-1965)

هوامش:

-1 تونس: المرأة والحكمة وأشياء أخرى، من كتاب معارج العبور (سيرة الجغرافيات الذاتية)، منشورات اتحاد كتاب المغرب سنة 2011، ص ص. 7-10.

-2 ماء قفصة يجري في التاريخ، ضمن كتاب: عبور إلى جغرافيات الأنا والآخر (نصوص رحلية)، منشورات مقاربات 2023، ص ص. 46-53.

-3 أحمد شراك: سوسيولوجيا الربيع العربي، مقاربات، الطبعة الأولى 2017، ص. 338 وما بعدها.

-4 لقد كانت الرحلة ما بين يوم 17 غشت إلى 24 غشت من سنة 2025، ضمن رحلة جماعية منظمة اختارت تونس قبلة للترحال.

فيضانات

محمد الشايب

قبل أن يفيض النهر، فاض قوالون، حملوا زادهم، واتبعوا طريق القول، وظلوا يتكلمون.. لم يستسلموا لتعب، ولا لنوم. هم كثيرون، يختلفون، ويتفقون، وغالبا ما يزيغون عن سبيل التريث، ولا يأبهون بلغة، ولا بمعنى، ولا بمضمون، ويمضون في أقاليم الكلام بعيدا، ولا يتوقفون..

وفاض أيضا منسوب الخوف، فغزا شوارع القلوب، الساكنُ في الطابق الأرضي صعد إلى الأعلى، والذي لا فوق له، لاذ بأي مكان آمن هربا من جبروت النهر، واصطف الناس أمام المتاجر يبتاعون المواد الغذائية وغيرها..

وفاضت كذلك الصور ، وغطت المواقع، وملأت العيون، وانتصرت على الكلمات. للصورة أثرٌ أقوى، والإقبال عليها كبير وإن تجردت من الجمال، والصدق، والإتقان، والنزاهة..

تعددت الفيضانات، والخطر واحد، وربما هناك فيضان أخطر من فيضان النهر. فقبل أن يغمر «سبو» الضفاف بالماء، امتد الطوفان إلى الأسعار، وساهم في هيجان الأنانية، ونشاط الصيد في مياه المصالح. وعلا عباب الشك، وتراجعت نسمات اليقين، وغرقت الألسن في أمواج الكلام، وفاضت العيون بالصور، واستولى الخوف على الأفئدة، وأخذ بزمام الأمور.

وحدها، في الضفة اليمنى، ظلت بعيدة، لم يصلها فزع الفيضان، ولم تنخرط في كلام، ولم تشتر شيئا، ولم تبع، ولم تنصت إلى أخبار، ولم تشاهد صورا، ولم تنتهز فرصا.. أمضت الوقت كلّه في عزلتها، ولم تفتح بابها إلا في وجه يد محسنة، تعطي خفية، ودون صور، ولا ضجيج.

ووحـده، في الضفة اليسرى، ظل لا يبالي، رابط ببيته المتواضع، ولم يغادره، ولم يسأل، ولم تصله أخبار، كان قليل الخروج، لكنه أضرب عنه نهائيا مع بداية الحديث عن الفيضان. غاب عن الأنظار، ونسيه الأهـل، ولم يلتفت إلى جهته الجيران. مضى الجميع في دروب الخيفة والتوجس، وغاصوا في الكلام الهائج، وركبوا أهوال الصور..

هما كائنان يعيشان بين برزخي العقل والجنون، يمضيان العمر بين أسوار الوحدة، هي وحيدة في الضفة اليمنى، وهو وحيد في الضفة اليسرى، هما قريبان ينحدران من عائلة واحدة، هما بعيدان تنكر لهما القريب قبل البعيد. وواصـلا الحياة بين عباب الحاجة، وسكاكين قلة الشيء. فرقهما النهر، وعاشا في عُدْوتين متقابلتين لكنهما ظلا يتوادان، يزورها كل خميس، يشتري لها ما تسير من حاجات، ثم يعود إلى ضفته.

واختار النهر أن يفيض على الجهة اليسرى، فغمرت المياه الحقول، وقبل أن تصل إلى البيوت، ترك الناسُ القرى، وانتشروا في الملاجئ البعيدة عن الفيضان. هاجروا، وبقي وحيدا مرابطا في بيته، وصلته نداءات، وتلقى تنبيهات لكنه ظل مصمما على البقاء معتقدا أن سبو لا يؤذي جيرانه، وحين أغار النهر على البيوت، وجد نفسه محاصرا بالمياه، فأخذ يسبح راغبا في النجاة، واللحاق بالأهل في الملاجئ.

رأوه من بعيد يقاوم التيار، فتعالت صيحاتهم، وولولوا كثيرا، وبكوا طويلا، صارع تدفق الماء القوي بلا هوادة، يظهر تارة، ويختفي تارة، قاوم حتى خارتْ قواه، فابتلعته المياه الهوجاء.

لم يزرها في الخميس الأول، وغاب في الثاني، ولم يظهر له أثر في الثالث. امتدت سلاسل الغياب، فلبست المرأة ثوب الحداد، تراجع النهر، وذهبت الفيضانات، وعادت الحياة إلى طبيعتها.. لكنها لم تنس، وداومـت، على الخروج إلى باب البيت كل خميس منتظرة قدوم القريب، ولم تعلم أنه مات.

كقصيدة لم تخلع النثر بعد

إدريس الملياني

إليها دائما..

أراك في الليل
حين يسقط الضوء على نافذتي
وتتناثر الظلال على الجدار
كأحلام لم تكتمل .

..

أنفث السحر في العقد
وأبحث عن صمتك بين أصابعي
لعله يبعث لي
كل شيء فاتني ولم أستطع قوله.

..

المدينة صاخبة وعنيفة
وأنا أمشي في أزقتها الضيقة
أعدّ الخطوات
كأن كل خطوة جواب بلاسؤال.

..

الريح تأتي من بعيد
تحملك معها وتتركني
أحمل صدى ضحكتك في صدري
كسرّ لا أستطيع الإفصاح عنه.

..

لا أُجيد ترتيب النهار
مثلما تفعل الأمهات
حين يمسحن زجاج النافذة
ويبتسمن كأنهنّ انتصرن على الغبار.

..

كنت أُفضل أن أدع الضوء يدخل
بعشوائيّته الجميلة
فيرسم على الجدار خطوطا عريضة
تشبه أخطائي وبقايا أحلامي الناقصة.

..

عندما صحوت
اكتشفت أن اليدين
ليستا فقط للغسل
ولا للأبواب التي تغلق

..

ولا للعمر الذي لم يرتّب
بل أيضا
لتفكيك الأجوبة
وكتابة ما لا يقال.

..

أحيانا أسمع الباب يئنّ
من فرط دخولي وخروجي
كأنني أودعت بمفصله
بعض ما ضعت فيه.

..

وأرهف السمع لصوت الباب
يطرق من الداخل
ثم تختفي الأصوات فجأة
كأن الغرفة ابتلعتها.

..

وأحيانا أرى عروجي
ومسراي ليلا طويلا
كقصيدة لم تخلع النثر بعد
ولم تتغرب ولم تتعرب.

..

كلّ الأشياء التي خلتها بسيطة
تخرج من حقائبها السود
صارخة في وجهي :
حذار!

..

فلم أعد أهمل فوضى الصباح
ولا تلك النبتة الصغيرة
التي تصرّ على الحياة
من دون إذن أحد.

..

أنا الآن
أتعلم أن أكون إنسانا كاملا
بالحلم الذي لا ينتهي أبدا
حتى وإن غاب عني وجهك.

..

وأكتب لا لأنقذ العالم
ولا لأرضي أحدا
بل لأترك قلبي على الورق
كي يتنفسك ولو من بعيد.

..

وأقسم لك وبك أكثر جدا
لو خذلني العالم كله
لبقيت أنت عزائي الوحيد
وأعزّ ما يطلب.

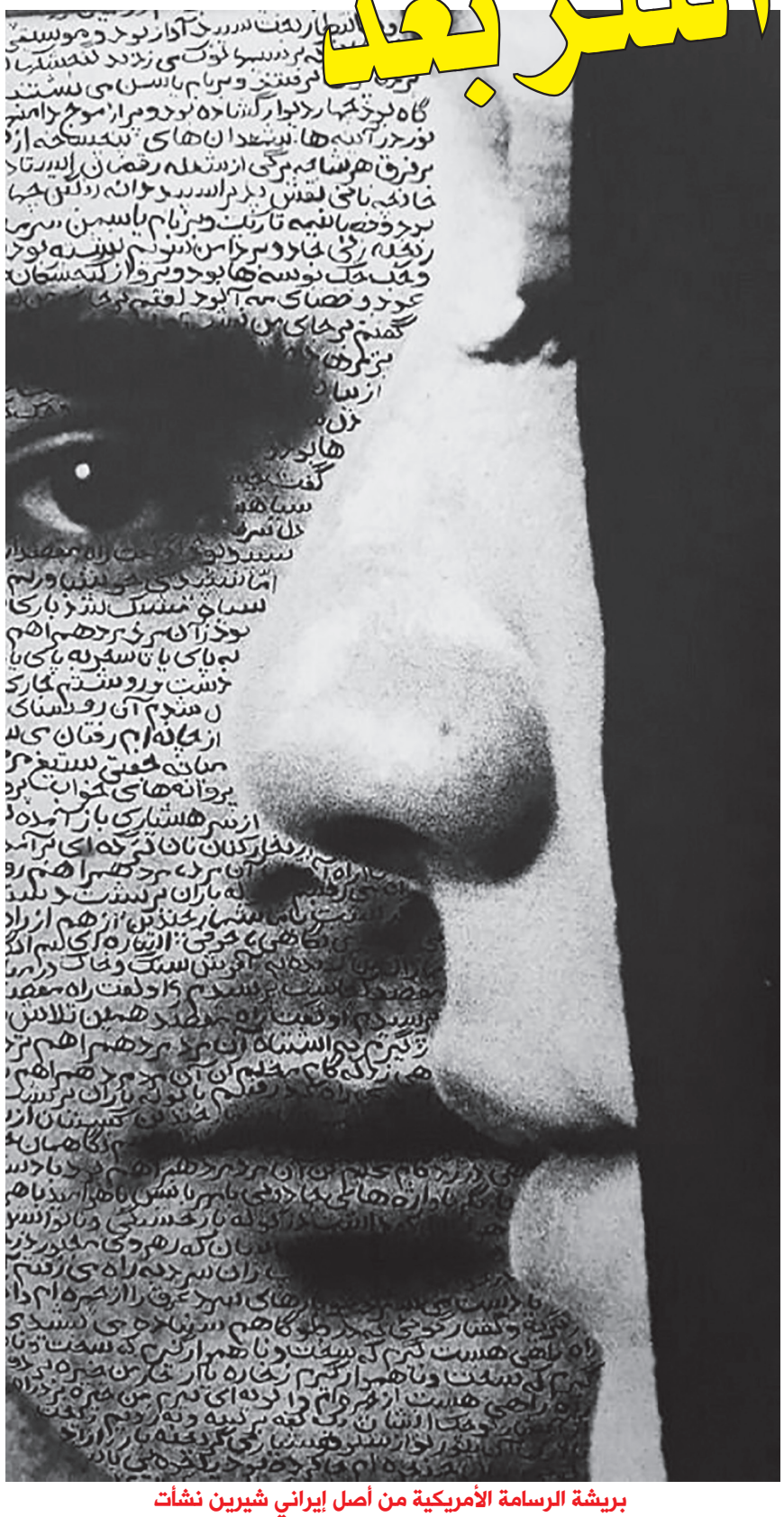

بريشة الرسامة الأمريكية من أصل إيراني شيرين نشأت

في الذكرى المائوية لرحيل الأديب المؤرخ المغربي محمد بوجندار (1926-2026)

د. محمد احميدة

ما أضعه اليوم بين أيدي المهتمين بأدبنا المغربي بشكل عام، وبالحياة الأدبية زمن الحماية بشكل خاص، هو ذيل وتكملة لعمل كان موضوع رسالتنا الجامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا، أنجزناها منذ أربعين سنة، تحت إشراف أستاذنا عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري رحمه الله، وتمت مناقشتها في يونيو 1986، ليصدر هذا العمل في كتاب سنة 1993 تحت عنوان «من الأدب المغربي على عهد الحماية: محمد بوجندار الشاعر الكاتب».

وظل ما جمعناه من التراث الشعري لهذا الأديب المؤرخ، ضمن ربائدنا، نمد بين الحين والآخر بعض الباحثين بجملة من نصوصه، حين يصطدمون بصعوبة الوصول إلى مظانه، أو بما آلت إليه حالة بعض تلك المصادر، وخاصة جريدة «السعادة»، التي تعتبر مصدراً أساسياً لشعر الأديب محمد بوجندار، بل وللعديد من شعراء وأدباء زمن الحماية.

وحينما حلت الذكرى التسعون لتأسيس النادي الجراري (1930-2020)، وقرَّر الدكتور عباس الجراري رئيس هذا النادي، الاحتفال بهذه الذكرى، ألحَّ عليَّ رحمه الله، أن يكون المجموع الشعري الذي بين يديَّ لمحمد بوجندار -وكنت أخبرته قبلاً بعزمي على نشره- من ضمن الإصدارات التي قرَّر العميد إخراجها بهذه المناسبة(1)، ضمن منشورات النادي الجراري. غير أن انصرافي إلى الإشراف على بعض ما صدر من مؤلفات في هذه المناسبة، ومتابعة البرنامج المسطَّر لهذه الذكرى، بما يتطلبه ذلك من جهد وزمن، حال بيني وبين الانكباب على هذا العمل، الذي - رغم توفر نصوصه بين يدي - يتطلب إعداداً يلزمه نوع من التفرغ، وفسحة من الزمن غير قصيرة.

وظل أستاذي - رحمه الله - يسأل ويلح على إخراج هذا العمل في تلك المناسبة؛ لكن تعذَّر تحقيق المطلوب.

واليوم، وقد حلت الذكرى المائوية لرحيل الأديب المؤرخ محمد بوجندار (1926-2026)، بدا لي أن الزمن مُسعفي لإخراج هذا المجموع الشعري، لواحد من أبرز الأسماء الشعرية في زمنه؛ يدفعني لذلك حرصي على ألَّا يضيع ما تبقى من أشعار هذا الأديب مما استطعنا الوصول إليه، والذي استغرق جمعه من مصادر مختلفة، سنوات عديدة.

من ديوان الشعر المغربي زمن الحماية

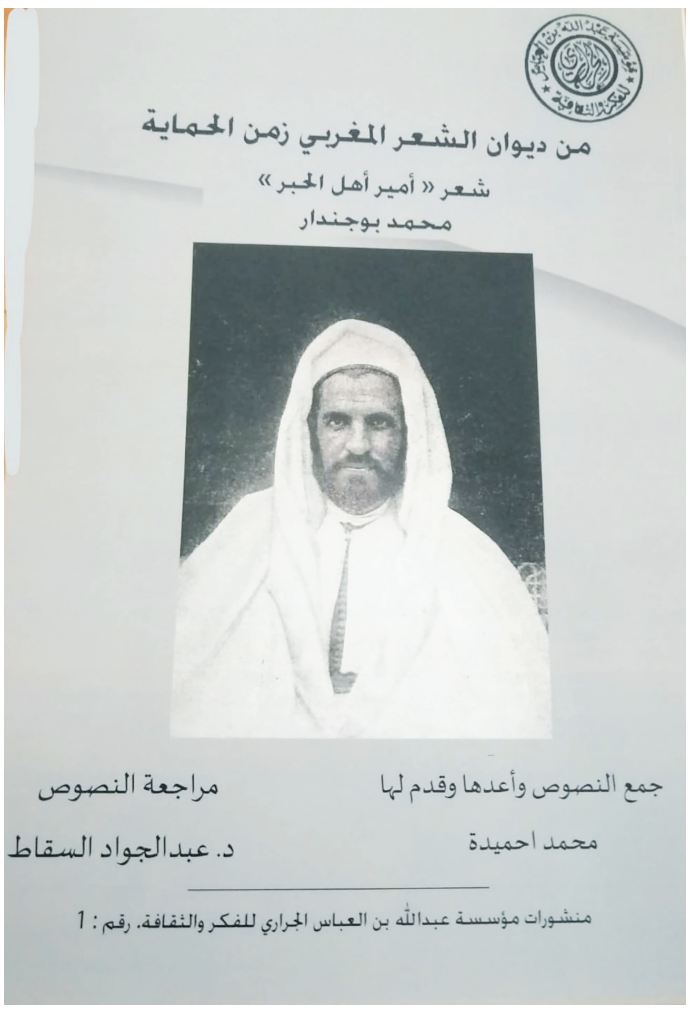

شعر أمير أهل الحبر محمد بوجندار

الباحثون المشتغلون بالدراسات الأدبية المغربية، يصطدمون بتلك الصعوبات التي تعترض سبيلهم، وهم يبحثون عن المادة العلمية لإنجاز أبحاثهم، وهي صعوبات لا تنحصر في فترة زمنية محددة، بل يصادفها الباحث، سواء ولي وجهه صوب أدب الفترات التاريخية القديمة، أم انبرى إلى الحديثة والمعاصرة.

وقد يعتقد البعض أن الانصراف إلى دراسة أدبنا في مرحلته التاريخية الحديثة، ستكون أهون، حتى إذا انغمس في صلبها، بحثاً وجمعاً لنصوصها، ألفى الأمر لا يخلو مما يلاقيه باحثون آخرون، اشتغلوا بهذا الأدب في عصوره الماضية.

لقد مس الضياع جزءاً غير قليل من تراثنا الأدبي، وهي شكوى طالما رددها الباحثون في هذا المجال، بل إن المرء ليقف مشدوها حينما يلمس حجم الغائب أو الضائع من تراث مرحلة تاريخية نعتبرها قريبة جداً من حاضرنا، وهذا ما وقفنا عليه حينما انصرف اهتمامنا إلى أدبنا المغربي خلال فترة الحماية (1912-1956)، وهي مرحلة عرفت فيها الساحة المغربية نشاطاً أدبياً ملحوظاً، وبرزت العديد من أسماء الأدباء والفقهاء، الذين أثروا الثقافة المغربية بكتاباتهم، فصُنِّفت مؤلفات في مجالات معرفية مختلفة، ونشطت أقلام المقالِّيين على أعمدة المجلات والجرائد، وبسط الشعر حضوره على مساحة غير صغيرة من الحركية الأدبية زمنئذ، وظهرت معالم حركة نقدية ما فتئت تتطور مع الزمن، ليشكل كل هذا الإنتاج الأدبي المتنوع، رصيداً يعتبر بحق إرثاً غنياً، يسعف في كتابة جزء من تاريخ الحركة الفكرية في بلاد المغرب.

ورغم الجهود العلمية الجامعية وغيرها، التي بذلت للكشف عن أدبنا المغربي، وخاصة ما أنجز تحت إشراف عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري رحمه الله، فقد ظلت مساحات كبيرة من زمن تاريخ هذا الأدب، تشكو البياض، من ثم ضرورة إنقاذ ما تصل إليه اليد، وإخراجه إلى دائرة التلقي الواسع ووضعه بين أيدي الباحثين والمهتمين.

وكان إنتاج الأديب محمد بوجندار نموذجاً لما لحق أدبنا من ضياع، وهو جزء من الصورة العامة لأدب زمن الحماية. وقد كنتُ في رسالتي الجامعية المشار إليها قبلاً، قد اتخذت من فترة الحماية 1912-1956، إطارا للبحث في أدبنا المغربي، وحصرت الموضوع أكثر لينصب على علم من أعلام الأدب في تلك المرحلة. وقد سمح ظهور هذا العمل في الساحة الجامعية، بعودة الاهتمام بإنتاج الأديب محمد بوجندار، والسعي إلى الكشف والتنقيب عن كتاباته الضائعة.

في هذا السياق، عمد الدكتور عبد الكريم كريِّم أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب بالرباط، إلى إخراج كتاب «الاغتباط بتراجم أعلام الرباط» لمحمد بوجندار. قام هذا العمل على إصدار صورة لمخطوط «الاغتباط»، وضع له الأستاذ كريِّم مقدمة عرّف من خلالها بالمؤلف ومضمون الكتاب؛ وتم إصدار هذا المصنّف بهذا الشكل سنة 1987(2)، أي بعد سنة من مناقشة رسالتي الجامعية. وسيظهر الاهتمام بهذا المصنّف مرة أخرى، حينما انصرف إلى الاشتغال به، أحد الباحثين السوريين، حيث انبرى الدكتور أحمد بن عبد الكريم إلى تحقيق «الاغتباط» وإصداره مع كتاب آخر لبوجندار هو «مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح» ، الذي يعتبر بمثابة مقدمة لتراجم أعلام الرباط التي تشكل مادة الكتاب الأول، وقد صدر هذا السِّفر ضمن منشورات «مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث» سنة 2009.

ولما حلت الذكرى المئوية لاتخاذ الرباط عاصمة للمملكة المغربية (1912-2012)، أصدرت كلية الآداب، بجامعة محمد الخامس بالرباط، بعض المصنّفات الغميسة التي تؤرخ لهذه المدينة، ومن بينها كتاب «مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح» ، للمؤرخ الأديب محمد بوجندار، وصدر الكتاب ضمن سلسلة نصوص ووثائق : رقم 5، بتقديم الأستاذ الباحث عبد العزيز الخمليشي، أستاذ التاريخ من هيئة التدريس بنفس الكلية(3).

وفي سياق الاهتمام بالكتابة التي تؤرخ لأعلام الرباط، ستعرف الساحة الثقافية المغربية صدور كتاب آخر اهتم بتراجم أعلام هذه المدينة. ففي شهر ماي 1986، ظهر كتاب «مجالس الانبساط بشرح تراجم علماء وصلحاء الرباط»(4)، للفقيه محمد بن علي دينية (1881-1939)، أحد معاصري محمد بوجندار، ولهذا الكتاب نفس الاهتمام الذي انصرف إليه بوجندار في كتابه «الاغتباط». وقد اغتنمت اللجنة الثقافية في جمعية رباط الفتح صدور ?تاب «الانبساط»، فنظّمت لقاء علمياً شارك فيه الأستاذ عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري، والأستاذ محمد احميدة، وأدار حوار هذه الجلسة الأستاذ الشاعر عبد اللطيف أحمد خالص، وتم ذلك بتاريخ 22 يبراير 1990. وقد سبق لي - في إطار اهتمامي بالتأريخ للحياة الثقافية في مدينة الرباط - أن شاركت قبل هذا التاريخ، في ندوة علمية، ضمن سلسلة «ندوة عبد الله الجراري» في حلقتها الأولى، التي نظمها الدكتور عباس الجراري بتاريخ 19 يناير 1985، وكان موضوعها «?تابة تاريخ العدوتين»، وجاءت مشاركتي ضمنها تحت عنوان «محمد بوجندار والتأريخ لمدينة الرباط»(5).

وانتقل الحوار العلمي حول كتاب «الاغتباط»، بعد إصدار النسخة الخطية مصوَّرة، بعناية الدكتور عبد الكريم كريِّم، إلى دائرة التلقي الواسع، من خلال الصحافة المكتوبة. فقد نُشرت جريدة «العلم «حواراً مع الدكتور عباس الجراري، نشر في ملحقها الثقافي بتاريخ 8 غشت 1987، وقد أجرت هذا الحوار الباحثة الدكتورة نجاة المريني ودار حول طبيعة التحقيق وضوابطه العلمية، لينعطف الحديث إلى كتاب «الاغتباط» في صيغة نشره التي أصدرها الدكتور عبد الكريم كريِّم، مسجِّلاً على وجه الغلاف عبارة «دراسة وتحقيق».

ولد هذا الحوار نقاشاً علمياً بين الأستاذين عباس الجراري وعبد الكريم كريِّم، استمر على صفحات «العلم الثقافي« إلى غاية 5 شتنبر 1987. وكان جوهر هذا النقاش حول الضوابط العلمية للتحقيق. ومما ورد في حديث الدكتور عباس الجراري في هذا السياق قوله: «..... وبهذا يتضح أن التحقيق - بما قد يكون معه من دراسة - عمل علمي له قواعده وقوانينه وشروطه.... وقد كان حرياً بالدكتور عبد الكريم كريِّم، وهو ينشر كتاب «الاغتباط» عن طريق تصويره، ألا يزعم «الدراسة والتحقيق»، لأنه ليس في العمل الذي قام به ما يقربه ولو بأدنى سبب إلى ما ادعى القيام به»(6).

كان طبيعياً أن يعقب الدكتور عبد الكريم كريِّم على ما جاء في كلام العميد. وجاء طي التعقيب أن نشر كتاب «الاغتباط» كان من باب «الحرص على تقديم النسخة الأصلية للاغتباط..... ثم «رد الاعتبار للمؤرخ بوجندار.... بالإضافة إلى أن النسخة الأصلية (يقول الدكتور عبد الكريم كريِّم) ظلت شبه مجهولة منذ وفاة مؤلفها سنة 1926»(7). لكن هذه الدفوعات لم تصمد أمام النقد الذي وجهه الدكتور عباس الجراري إلى طبيعة إخراج كتاب «الاغتباط»، وبالشكل الذي قدمه به الدكتور عبد الكريم، إلى القرّاء، باعتباره نصّاً محققاً.

وجاء اهتمام آخر بهذه الشخصية الأدبية، من طرف الأستاذة الباحثة الدكتورة

إلهام السوسي العبداللوي، التي عملت على إخراج نصوص نثرية لمحمد بوجندار، متمثلة فيما كتبه ما بين سنتي 1919 و1920 من مقالات عن فن المقامة، كان قد نشرها على صفحات جريدة «السعادة» ليجمعها صاحبها فيما بعد ضمن كتاب أسماه «أبدع المقالات في فن المقامات»(8).

نسوق هذا الكلام، في معرض إبراز ما حظي به إنتاج الأديب محمد بوجندار من اهتمام، بعد مناقشة رسالتنا الجامعية التي أدرتها على هذا العَلم، أواخر سنوات الثمانين من القرن الماضي. ولم تنحصر هذه الالتفاتة في ما دار من نقاش بين أساتذة مغاربة، بل سينتقل الاهتمام إلى بعض الباحثين العرب. فبالإضافة إلى تحقيق «الاغتباط» من طرف الباحث السوري أحمد عبد الكريم نجيب، كما جاءت الإشارة إلى ذلك قبلا، سنجد باحثا ليبيا ينصرف بدوره إلى الاشتغال بتراث هذا الأديب، حيث عمل الدكتور أحمد مصباح السحيم الأوجلي على تحقيق ودراسة رسالة «نزهة الألباب في قطف اللباب من فوائد لقط باب»(9)، لأديب العدوتين، محمد بوجندار.

ثم جاءت التفاتة أخرى من الباحث العراقي/ الأمريكي، الدكتور فوزي عبد الرزاق، الذي خصص الفصل الرابع من كتابه «تاريخ حركة الطباعة والنشر في المغرب خلال فترة الحماية (1912-1955)»(10)، للحديث عن محمد بوجندار، بالإضافة إلى إشارات في أماكن أخرى من الكتاب، مُوثقا كلامه ومعتمدا ضمن بعض ما ساقه في هذا الحديث، على دراستنا التي صدرت سنة 1993 تحت عنوان» من الأدب المغربي على عهد الحماية: محمد بوجندار الشاعر الكاتب«.

ورغم هذا الاهتمام بإنتاج هذا الأديب، فقد ظل جزء غير يسير من كتاباته الشعرية والنثرية، بعيدا عن أيدي الباحثين المهتمين، إما لضياع بعضه أو بقائه مخطوطا منزويا في بعض الخزائن الخاصة، أو متفرقا على صفحات جريدة «السعادة« التي احتضنت قسما من الإنتاج الجنداري.

ولما كان اشتغالنا بتراث محمد بوجندار قد امتد على مدى سنوات، كان مبتدؤها أواخر سنوات السبعين من القرن الماضي، فقد تجمع لدينا - بعد البحث والتنقيب - كم غير قليل من شعر هذا الأديب، رغبنا في وضعه بين أيدي الباحثين، وخاصة الجيل الجديد منهم، لما لمسناه عند هؤلاء من تطلع وقد اتخذوا من الأدب العربي في المغرب زمن الحماية مجالا لاهتماماتهم العلمية سواء على مستوى الماستر أو الدكتوراه(11). وتأكد لدينا هذا الأمر عن كثب، يوم عمد بعض الزملاء الأساتذة، من الباحثين في أدبنا المغربي - وكنت واحدا منهم - إلى فتح ماستر «الأدب العربي في المغرب الحديث والمعاصر: التاريخ والخطاب«، بكلية الآداب، جامعة ابن طفيل بالقنيطرة. لذا بدا لي أن إخراج هذه الأشعار لواحد من أبرز شعراء المغرب خلال تلك المرحلة التاريخية، قد يكون مساعدا للباحثين عن المساهمة في بناء جانب من صورة الشعر المغربي زمن الحماية.

وهناك أمر قد يخطر على بال القارىء، ونحن نتحدث عن شعر محمد بوجندار، يمكن صياغته في السؤال التالي: ألم يجمع محمد بوجندار شعره في ديوان؟ وإذا كان قد تم بالفعل، فأين هذا الديوان ؟

والحق أننا عثرنا، ونحن نبحث وندرس ما وقفنا عليه من كتابات هذا الأديب في سياق آخر، على إشارات تؤكد أن هذا الشاعر الرباطي، قد عمد إلى جمع أشعاره ضمن ديوان، بل وضع لهذا الديوان عنوانا صاغه كالآتي: »زفاف الأبكار من عرائس الأفكار«، وقد وردت الإشارة إليه طي كتابه المخطوط »الدر المنثور فيما لي من الكلام المنثور«، عند حديثه عن مساجلة دارت بينه وبين الشاعر العباس الشرفي حيث قال في هذا السياق(12):

« وبعد الجواب بما سطر، أطلعتُ عليه وعلى المجاب عنه صاحبنا السيد العباس الشرفي، فاهتز لهما استحسانا وكتب لي من إنشائه قطعة شعرية أيضا، ثم راجعته فيها، واسترسلنا في مساجلة لطيفة على بحر وروي القطعتين المذكورتين، فإن رُمتَها فعليك بقافية السين من ديواننا المسمى «زفاف الأبكار من عرائس الأفكار».

وإلى أن يظهر هذا الديوان - إذا سلم من الضياع أو الإتلاف - فإننا نضع بين أيدي الباحثين هذا المجموع من شعر الشاعر، باعتباره جزءا من صورة ما أنتجه شعراء المغرب زمن الحماية.

ولا نرغب في هذه المقدمة، الإسهاب في الحديث عن شعر بوجندار، فهذا موضوع سبق أن بسطنا القول فيه، ضمن كتابنا «من الأدب المغربي على عهد الحماية: محمد بوجندار الشاعر الكاتب»، لكن يمكن القول إن ما تجمع لدينا من أشعاره يجمع بين القصيدة والمقطوعة والنتفة، مع حضور الموشح من خلال نصين اثنين.

وتوزعت هذه الأشعار بين مديح السلطان ومديح سلطات الحماية إلى المديح النبوي، لتشكل المساجلات حيزا كبيرا ضمن هذا المجموع، ذلك أن التقاليد الأدبية خلال تلك الفترة التاريخية، أفسحت المجال واسعا لهذا النمط من النظم، ساهمت المناسبات المتنوعة والمتعددة، بتوسيع دائرته فيما كان يدور بين الشعراء، في الأعياد الدينية والمناسبات الاجتماعية، بالإضافة إلى ما كانت تسمح به إثارة بعض القضايا الأدبية أو اللغوية

أو الفقهية أو التاريخية داخل الأندية الأدبية أو خارجها، يتم النقاش حولها من خلال المساجلات الشعرية، تدور بين شاعرين أو أكثر، وكانت لمحمد بوجندار زمنئذ، صولات وجولات في هذا الباب.

وهناك أمر تجدر الإشارة إليه في هذا السياق؛ فقد آخذنا البعض - ونحن نشتغل بشعر هذا الشاعر في فترة سابقة- على ما أشرنا إليه من ذلك الحضور اللافت لتلك الأشعار التي نظمها محمد بوجندار، مساندا سلطات الحماية. وقد كان من باب الموضوعية، عدم غض الطرف عن هذا الجانب، الذي لم يكن بوجندار سوى واحد من دائرة كبيرة، ضمت شعراء عديدين(13).

إن هذا الإنتاج الشعري، المساند لسياسة المستعمر الفرنسي، هو جزء من تراثنا الأدبي، وتجب المحافظة عليه، حتى إذا انصرف الباحثون في أدب زمن الحماية إلى دراسته، وجدوا أصواتا شعرية متنوعة، ولا يبقى النظر محصورا فيما قيل من شعر إصلاحي والدعوة إلى الجهاد ومواكبة الأحداث الوطنية، بل لا بد من ظهور المختلف سعيا لاستكمال الصورة، وتوفير عناصر تساعد على إضفاء الموضوعية على الدراسات التي تنظر في الحركة الشعرية بالمغرب خلال تلك المرحلة.

وبادٍ أن ما وقفنا عليه من نصوص، لا يفي بتقديم صورة شمولية ومتكاملة عن التجربة الشعرية لأبي جندار، خاصة وأن ما بأيدينا قل من كثر، وأن أديب العدوتين كان شاعرا مكثرا رغم الظروف الصحية التي عاشها ولم تفسح له في العمر، سوى سبع وثلاثين عاما، أقعد المرض جسده وهو في ريعان شبابه، لكن دون أن يُقعد قلمه الذي ظل يحبِّر شعرا ونثرا، رسما ملامح أديب نابغة.

وبعد لَمّ هذه الإضمامة الشعرية الجندارية، وتهييئها لإخراجها في هذه الصيغة، وضعنا لهذا العمل العنوان التالي: «من ديوان الشعر المغربي زمن الحماية : شعر أمير أهل الحبر محمد بوجندار». وقد يتولد لدى القارئ سؤال يستفهم من خلاله عن حضور العنوان الفرعي بتلك الصيغة التي تنعت الشاعر محمد بوجندار بـ»أمير أهل الحبر«؟ وقد تستدرج هذه العبارة سؤالا آخر: ومن هم أهل الحبر؟

إنهم أولئك الذين يغمسون ريشتهم في مداد الوجدان الفردي أو الجمعي، فيسطرون مشاعرهم بسواد الحبر على بياض الورق ! إنهم الشعراء الذين يتبعهم من رقت حواشي أحاسيسهم، وسما ذوقهم إلى درجة عالية من الرهافة، بل قل إنّهم الأدباء، شعروا أو نثروا !

وسواء فتحتَ حاء «الحبر» أو كسرتَها، يظل الأديب محمد بوجندار داخل دائرة من أحكموا صنعة الكلام، ويصطف مع من سمت بهم اليراعة، وعلت منزلتهم في النظيم والنثير، في سياقهم التاريخي.

أما أن يكون لهؤلاء» أمير«، فذلك شأن آخر! هل جرى الحديث عن إمارة الشعر في المغرب ونحن في بداية القرن العشرين ؟ قد يكون ! لكن الثابت أن الأديب محمد بوجندار، كان له حضور لافت في الساحة الأدبية المغربية في الربع الأول من القرن العشرين، وهو صاحب نادٍ أدبي فاعل (النادي الجنداري)، ضم نخبة من مثقفي المرحلة، وأغنت مشاركاته، من خلال كتاباته النثرية وقصائده الشعرية، الحركية الأدبية لذلك الزمان، مما أكسبه مكانة مرموقة بين أدباء جيله، فلقبوه بعدة ألقاب ترسم مكانته الأدبية العالية وأضْفوا عليه صفات

كـ» أديب العدوتين« أو» رب اليراع«، أو »طود العلم« .... ومنها ذلك اللقب الذي وصفه بـ»أمير أهل الحبر«.

من أطلق على الأديب محمد بوجندار هذا اللقب ؟

كان أحمد بن المامون البلغيثي(14) (1865-1929) أحد الشعراء المغاربة الذين توطدت علاقتهم بالأديب محمد بوجندار، وجرت بينهما مساجلات كثيرة، دوّن البلغيثي العديد منها في ديوانه »تبسم ثغور الأشعار بتنسم عبير الأفكار«. وإذا كان بوجندار يعتبر البلغيثي شيخه، فإن هذا الأخير كان يرى في الشاعر الرباطي أحد نبغاء الأدب بالمغرب في تلك المرحلة التاريخية، ومن ثم أضفى عليه لقب» أمير أهل الحبر«، الذي صاغه خَلَل إحدى المساجلات التي دارت بين الشاعرين، حيث خاطب البلغيثي مُسَاجِله بقوله:

أأمير أهل الحبْر والأقلام
وسمير كل محقق علام
وافى محبَّر شعرك الأحلى الذي
فيه يزيد تولهي وهُيامي

والذين يعرفون مكانة الأديب أحمد بن المامون البلغيثي، يعلمون أنه لا يلقي الكلام على عواهنه، ولا يُنتزع منه اعتراف بموهبة ومكانة أديب، إلا بعد تمحيص ومعرفة مؤكدة بما حبَره ذلك الأديب قريضا ونثيرا؛ وبالتالي فإن خطابه لمحمد بوجندار وإضفاء لقب «أمير أهل الحبْر» عليه لم يكن إلا اعترافا بالمكانة المتميزة التي احتلها هذا الأديب بين صفوة كتاب المغرب وشعرائه في الربع الأول من القرن العشرين.

لكل ذلك، وحرصا على الحفاظ على ما وقفنا عليه من أشعار شاعر له هذه المكانة بين أدباء جيله، عملنا على أن يضم هذا المصنّف بين دفتيه، هذه النصوص مما قصّده محمد بوجندار، على أمل أن يسعف الزمن في العثور على ديوانه، أو قصائد أخرى من أشعاره.

فما عملنا في إخراج هذا المتن الشعري لمحمد بوجندار؟

هوامش:

-1 لقد جمعنا ما استطعنا الوصول إليه من قصائد ومقطعات ونتف شعرية، أخرجناها من مصادر متعددة، منها المخطوط والمرقون والمطبوع وما نشر على أعمدة جريدة «السعادة». وما أدرجناه من أشعار في هذا المصنّف، كان بين أيدينا منذ بداية سنوات الثمانين من القرن الماضي، واستطعنا الحصول على ثلاثة نصوص جديدة، اثنان منها، ظهرا مؤخرا عند أحد أفراد أسرة الفقيه محمد المكي البطاوري، أمدنا بها جميعا - مشكورا - الباحث الدكتور سي محمد أملح من مدينة تطوان.

2- رتبنا تلك الأشعار ترتيباً ألفبائياً باعتماد حركة الروي المتدرجة من الساكن إلى المفتوح ثم المضموم فالمكسور.

3- أفردنا المقصورات والموشح بموضع جاء في نهاية المجموع.

4- عرّفنا ببعض الأعلام ممن ورد اسمهم طي تلك الأشعار، أو تمت الإشارة إليهم في سياق آخر، ثم أحلنا على بعض المراجع التي تساعد على الاستزادة.

5-وضعنا فهارس محددة في نهاية الكتاب، تشكلت من فهرس للقوافي، وفهرس للأعلام، وآخر للمصادر والمراجع. وختمناها بفهرس للمحتويات.

6- أحلنا في الهوامش على مصدر أو مصادر كل نص، تسهيلا لمن يرغب في الرجوع إلى الأصل.

7- أشرنا في بعض الهوامش إلى الاختلافات التي مست رواية بعض الأبيات .

-8 وضعنا ملحقاً في نهاية المتن الشعري، تضمن نماذج من شعر محمد بوجندار بخط يده وتوقيعه.

ونود في ختام هذه المقدمة، أن نتقدم بخالص الشكر إلى كل من قدّم لنا يد المساعدة، لتسهيل جمع هذه الأشعار، وأخص بالذكر الراحليْن الحاج أحمد بوجندار وأمينة بوجندار ابنة الشاعر، تغمدهما الله بواسع رحمته، والباحث الأستاذ الدكتور سي محمد أملح من مدينة تطوان؛ كما أود أن أنوّه وأثني على صديقي وزميلي الأستاذ الباحث المحقق الدكتور عبد الجواد السقاط، الذي قام بمراجعة المتن الشعري، بما عُرف عنه من تمرس بتحقيق النص الشعري، والمغربي منه على وجه الخصوص. أما أستاذي الراحل عميد الأدب المغربي، د.عباس الجراري، ففُدَاء فضله في هذا الباب فسيح، وإلى روحه أهدي بعض ما غرس؛ تغمده الله بواسع رحمته وأسكنه فسيح جناته.

وجماع القول، إن هذا العمل، بالشكل الذي نضعه بين أيدي المهتمين بأدبنا المغربي، نبغيه عَتبة أولى، نأمل أن تُيسِّر الخطو للباحثين نحو إنجاز آخر، يسعى إلى تحقيق علمي لهذه الأشعار، والبحث عن الضائع منها، مما يمكن أن تضمه مصادر لم يتأتّ لنا الوقوف عليها، ومن بينها بعض مؤلفات الأديب محمد بوجندار نفسه(15). وغايتنا من كل ذلك، الحفاظ على ما يتم الوقوف عليه من تراثنا الأدبي، ليس في زمن الحماية فحسب، بل في مختلف المراحل التاريخية، تأسيسا لما يمكن أن يشكل قاعدة علمية، لكتابة تاريخنا الأدبي في صورته العامة.

---

(1) أُنظر الحديث عن هذه الذكرى والإصدارات التي طبعت بالمناسبة، في مقالنا «النادي الجراري يخلد الذكرى التسعين لتأسيسه»، المنشور في «العلم الثقافي» بتاريخ الخميس 4 مارس 2021.

(2) صدر عن مطابع الأطلس بالرباط.

(3) صدرت هذه الطبعة سنة 1433ه2012-م، مطبعة الأمنية، الرباط.

(4) صدرت طبعته الأولى في ماي 1986، مطابع الاتقان، الرباط.

(5) نشر هذا البحث ضمن كتاب «كتابة تاريخ العدوتين»، ندوة عبد الله الجراري، الحلقة الأولى، منشورات النادي الجراري، رقم 2، ط، 1، 1987، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

(6) العلم الثقافي، ع، 835، بتاريخ 8 غشت 1987.

(7) العلم الثقافي، ع، 836، بتاريخ 15 غشت 1987.

(8) صدرت طبعته الأولى في أكتوبر 2016، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط.

(9) صدر هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة 2012، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط.

(10) صدرت الطبعة الأولى بتقديم د. حسن نجمي 2023، مطبعة الكرامة، الرباط.

(11) أنجز الأستاذ الدكتور وليد علا بحثاً لنيل شهادة الماستر في موضوع : الأنساق الثقافية في القصيدة المشيرية زمن الحماية، تمثلات الأنا والآخر، إشراف الأستاذة الدكتورة نورة لغزاري، وتمت مناقشة هذه الرسالة العلمية بكلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل بالقنيطرة، سنة 2017، ثم شفع هذه الدراسة بأطروحة لنيل الدكتوراه، بعنوان

«الاتجاه المشيري في الأدب المغربي الحديث على عهد الحماية بين مكر الصورة وهيمنة الخطاب» بإشراف الدكتورة نورة لغزاري، ونوقشت بنفس الكلية، بتاريخ 30 دجنبر 2024. والطالب وليد علا أحد خريجي ماستر «مكونات الأدب العربي في المغرب الحديث والمعاصر: التاريخ والخطاب».

(12) "الدر المنثور فيما لي من الكلام المنثور، محمد بوجندار، الورقتان 18 و19، والعباس الشرفي المشار إليه (1873-1940) من الشعراء المغاربة المعاصرين لمحمد بوجندار.

(13) انظر دراستنا «الشعر المغربي على عهد الحماية، القصيدة المشيرية : الوظيفة والبناء»، ضمن كتاب »دراسات في الأدب العربي بالمغرب الحديث«، محمد أحميدة ، جـ 1، صص، 7-56.

(14) الشاعر أحمد بن المامون البلغيثي من أبرز شعراء المغرب في النصف الأول من القرن العشرين، ومن المتضلعين في الفقه الإسلامي. تولى القضاء في عدة مدن مغربية، وعيّن عضوا بمجلس الاستئناف في الرباط. رحل إلى المشرق والتقى ببعض علمائه. له عدة مؤلفات وأشعار كثيرة جمعها ابنه الشاعر عبد المالك البلغيثي في ديوان «تبسم ثغور الأشعار بتنسم عبير الأفكار». وقد أنجز الباحث الجامعي الدكتور امحمد العلمي رحمه الله، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، تحت إشراف عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري تغمده الله بواسع رحمته، أقامها على تحقيق الجزء الأول من ديوان البلغيثي ودراسة الديوان بجزأيه (1982). وقد صدر الجزء المتعلق بالدراسة ضمن منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، سنة 2006.

(15) ظهرت مؤخرا ضمن جائزة الحسن الثاني للمخطوطات، في دورتها الثانية والأربعين برسم سنة 2022، نسخة مخطوطة من «أزهار الخمائل المسكية من أخبار الشمائل المكية» لشيخ الجماعة محمد المكي البطاوري، وهو كتاب كان في حكم المفقود. تسلمنا، بيد شاكرة، نسخة منه من صديقنا الأستاذ الدكتور أحمد شوقي بنبين، مدير الخزانة الملكية بالرباط. وبمجرد اطلاعنا عليها اقترحت على الأستاذ الباحث الدكتور سي محمد أملح، تحقيق هذا النص، وسلمته النسخة التي كانت بين يدي، وقد شرع في العمل، وإنه لعازم إن شاء الله على إنجاز المأمول.

«أضع نفسي في وضع من ينجز شيئا ، وليس في وضع من يتكلّم عن شيء: لا أدرس منتوجا؛ وإنّما أنخرط في عملية إنتاجه؛ فأبطل الخطاب عن الخطاب؛ ولذلك لم يعد العالم يحضر عندي في شكل موضوع؛ ولكن في شكل كتابة؛ أي في شكل ممارسة؛ وهكذا أنتقل إلى نوعٍ آخر من المعرفة (معرفة الهاوي)...» «ر. ب Incidents»

ترجمة: إسماعيل أزيات

بقلم: رولان بارط

وقائع عرضية (3)

في المغرب منذ زمن ليس ببعيد

حميدو، تلميذ في السنة الثانية، أستاذ التربية البدنية في المستقبل، صادفته صباح يوم أحد في غبار سوق السلع المستعملة..

Ket، المعوز والمحبّ للمرح، بمعطفه القصير الواقي من المطر، بحذائه الضّخم الخَرِب، بعيونه المغربية الجميلة، بشعره المجَعّد، يلزمه أن «يفكّر» في الغد في «مفهوم موليير للكوميديا».

حميدو: أفضّل أن أكتب اسمي دون حاء، لأنّه :

لذيذ مثل النّشاء (ناعم كعجينة)
سريع الالتهاب كالصوفان (قابل للاشتعال كالفطر الجاف)..

معجب بمفردات حميدو:
الحلم والتدفّق للدلالة على بلوغ الانتصاب وحصول النّشوة.

التدفّق نباتي، متناثر، متبعثر، غير مؤدّب، غير نرجسي، غير منغلق على نفسه.

رمضان: سيطلع الهلال قريبا. ينبغي الانتظار نصف ساعة أخرى لممارسة الجنس:»شرعت أحتلم» «هل هذا جائز؟»»لا أدري»
A، الذي ذهب في اليوم السّابق بعد أن «احتلم»، عادّ ما إن وجد نفسه في الشارع؛ لن يتمكن من الاغتسال كما تقتضيه ديانته، لأنّ مدرسته الداخلية لا تسمح بالاستحمام إلاّ مرّة واحدة في الأسبوع، إلخ. (نقمة ملقاة على الدولة).

يجلسون على الشرفة، ينتظرون أن تضيء اللمبة الحمراء الصغيرة أعلى المئذنة، إيذانا بانتهاء الصيّام.
بعد كلّ ظهيرة من رمضان، حوالي الخامسة مساء (نحن في شهر نونبر)، يتحوّل مطعم ليبراسيون في المدينة القديمة، كما يُرى من الشارع، إلى مأوى للفقراء بصفوف طويلة من الطاولات حيث يصطفّ رجال ليتناولوا حساءهم؛ الوحيد الذي يخدم كلّ هؤلاء يجري في كل اتّجاه كأنّه راهب كرّس حياته للخدمة في دير.

النّاصري يعرف اللغة الفرنسية جيّدا؛ لكي يبرهن على ذلك، يزيّن خطابه بتعابير غريبة: «خرجوا هذا المساء، لأنّه رمضان».
«المحاسب الرئيسي» (شاب بوجه جذاب) يردّد بجديّة: «الحضارة هي أن تعرف حقوقك وتكون على دراية بواجباتك» بعد كلّ هذا، ينفجر من الضحك كما نحن جميعا.
مساء هذه الجمعة، بينما ينقضي الصّوم، يكون التدخين لا زال محظورا، لأنّه عند مغادرة الشارع لولوج منزل يهودي، يكون السبت قد بدأ.
أساتذة اللغة الفرنسية يتناقشون حول طالب دكتوراه: ما هي مؤهّلاته البيداغوجية؟ ارتباك، حرج. فجأة، ولإراحة الجميع، يصيح أحدهم: الدّرس الذي تقدّم به في التّبريز !
حلاقة: ماسح أحذيتي منحن على حذائي، يكشف عن صلعته الكبيرة في مؤخرة جمجمته، بينما وراءه، على الرصيف، ولد بثياب رثّة، يمشّط بهوس شعره المقصوص المغبّر بمشط دمية.
الصّلة بين يديه الرّهيفتين، المعتنى بهما، (لقد أتى على غسلهما) والكيفية التي يظهرهما بها، يتلاعب بهما، يقحمهما، وهو يتحدّث، ضمن السجّل الإيمائي الخاص بالأقدام السّود[1]. الصّلة بين الرقّة البالغة لجواربه السّود غالية الثمن والكيفية التي يمدّ بها ساقيه.
ماسح أحذية أخرق ونصف مخبول يندفع دوما نحوي عارضا عليّ خدمته بإصرار: «أنا، تلميع، صين» (صفة للإتقان).

في اليوم نفسه:
من جهة، طالب بورجوازي صغير يختال ببلاهة أمام الآخرين لـ»يحرج الأستاذ»، والذي يعترض عليّ بقول سخيف للغاية، لا يبقى منه سوى إعلان عن سوء طويّة.
من جهة أخرى، مصطفى، ويدعى مصطا Musta: شعر مقصوص، عينان جميلتان لوزيتان، رأس رومانيّ على وجه التقريب فضلا عن حسن عبارته؛ وُلد بفاس، له ثمانية عشر عاما وهو فقير للغاية. يبحث، ليستطيع مواصلة دراسته، عن عمل في الرباط.
وجد عملا عند نجّار في العكّارين؛ يتقاضى ثلاثمائة وخمسين فرنكا في الأسبوع. أبوه لا يشتغل، أمّه تعمل في مصنع للنّسيج. يعيش مع إحدى شقيقاته. كائن مجرّد من أيّ حقد.
فرنسية ضئيلة الحجم حازمة، عشيقها المهزول يحمل حقائب ضخمة، تردّ على قابض التذاكر وقد علّق «لكِ حمولة ثقيلة !»، :»إنّهم لصوص حقيقيون، هؤلاء الحمّالون، لكنّهم لا يستطيعون أن يخدعوننا لحظة واحدة». ضحكة طفولية من قابض التذاكر، وإن كان هو الآخر مستاء مثل الحمّالين.
شبّان من أبناء البلد - مزهوّين أمام فتيات – يتظاهرون بالتحدّث بالإنجليزية بنبرة فرنسية مبالغ فيها (طريقة لإخفاء، دون فقد الاعتبار، أنّهم لن يتمكنوا أبدا من امتلاك النّبرة الصّحيحة).

المدينة القديمة: في الساعة السادسة مساء، في الشارع الذي يعجّ بالباعة المتجوّلين، ثمّة رجل حزين يعرض للبيع لوحا للتقطيع[2] على حافة الرّصيف.
خلفي، في الطائرة، سيّدة فرنسية مسنّة، في خضمّ الحديث مع امرأة بقربها، منهمكة في التّطريز: قطعة من كتّان صلب ضاربة إلى اللون الرمادي، رُسمت فوقها باقة زهورٍ من الطراز القديم. في وقت لاحق، ودون أن تنزل عند التوقف في المحطّة الانتقالية، تواصل عملها أثناء الهبوط والإقلاع، في سكون تامّ وسط اهتزازات الطائرة: شخصية رابطة الجأش.

مراقبان للتّذاكر، في استراحة، يجلسان في حانة؛ الأصغر يمدّ فنجان قهوة للأكبر سنّا، يمتنع عن تناوله مع ابتسامة. بعد ذلك، انتبهتُ أنّ الأكبر سنّا ليس سوى مساعد، له نجمة واحدة، بينما الأصغر له ثلاث نجمات.

في القطار، حولي: (1) امرأة تسافر وحيدة، ذات نبرة جرمانية (ألزاسيّة، سويسرية)، تسريحة شعرها على شكل ذيل حصان مع وشاح معقود حولها؛ تحاول أن تتواصل معي، تقبل طبق الطعام عندما أفعل، لا تطلب شيئا للشّراب، ثمّ تريد ماء معدنيا Seltz، مكعّبات ثلج، إلخ؛ تقرأ [3] 2) Rif, terre de légendes.) امرأة مغربية سوداء، مصابة بالبثور؛ ترتدي قفطانا بلون الذّبيذ وحذاء عالي الأزرار وتحمل بين ذراعيها رضيعا ذا شعر مجعّد؛ (3) امرأة بسيطة من الأقدام السّود تعكف على غرزة كروتشيه معقّدة؛ (4) سحاقيتان تلعبان الورق؛ (5) شاب مغربي بأقدام حافية.
سيّارة أجرة جماعية: «نائب» من تطوان (مهندس معماري أشرف على إنشاء تصميم لشارع رئيسي بمدريد ممّا جعله من أصحاب الملايين) يتولّى، في الظلام والمطر، تسييرسائقنا العجوز (بقميص رمادي وطاقية صفراء)، والذي لا يرى شيئا من الطريق بفعل الصيحات الرنّانة الحادّة والمباغتة.
أنت تقود حصانا مسنّا يجرّ عربة، ولذلك فهو منصاع تماما.

تعاونية عمالية في أزرو: سرب من فتيات صغيرات مترصّدات بعضهنّ إلى بعض كالعصافير، يسقسقن على زرابي ضخمة ماثلة أمامهنّ: مزيج من قفص طيور وحجرة دراسة؛ ومن هناك إلى حريم قصر سادي.

في إيطو[4]، المطلّة على مشهد طبيعي شاسع ورفيع، أحدنا يعطي مازحا صورة امرأة عارية (مأخوذة من لست أدري أيّ بلاي بوي) إلى الشاب موحى، بائع الأحجار شبه الكريمة: ابتسامات، تحفظ، جديّة، أخذ مسافة من قبل الفتى: هو الذي يتحكّم في مشهد أريد له أن يحرجه؛ تظلّ هستيريا الفتى الآخر هنا ذات جانب أمومي.

عبد القادر، فتى ذو عيون لامعة، وابتسامة صارمة، يتمتّع بلطف فائق الحدّ، يجسّد في كلّ بهائه، وأبعد من كلّ شكل من أشكال الثقافة، جوهر الإحسان في ذاته: ليس هناك من كلمة أخرى تصف ذلك. (تنغير).

مستوقفان من الهيبيّين، ايديولوجيا : أحدهما يحدّثني عن «تيّار الوعي». اقتصاديا: الذهاب إلى مراكش لشراء القمصان الهندية وإعادة بيعها في هولندا بثمن باهظ. شعائريا: بمجرّد وصولهما إلى هولندا، وفي المقعد الخلفي للسيّارة، يلفّان سجائر محشوّة بحشيش ويغرقان طوعا وتلقائيا في الغيبوبة (يستيقظان منها حالما يُمنحان قهوة).

لكن كذلك : في سطات، حملت عند إشارة توقّف مستوقفا يبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة؛ يحمل كيسا كبيرا ممتلئا بالبرتقال والماندرين وحزمة ملفوفة في ورق شفّاف متّسخ؛ وديع، رزين، متحفّظ، لا يضع كلّ هذا بجانبه، بل يحتفظ به على ركبتيه وفي قعر قبّ جلابته. يدعى عبد اللطيف. في قلب بادية مكشوفة، ودون أثر لقرية، يطلب منّي التوقّف ويشير إلى سهل منبسط: إلى هنا هو ذاهب. يقبّل يدي ويمنحني درهمين (على الأرجح ثمن الحافلة، الذي كان قد هيّأه ويحتفظ به في قبضته). (1969)

هوامش (من وضع المترجم):

1 ـ الأقدام السود، لقب أطلق على المستوطنين الفرنسيين بعد عودتهم إلى بلدهم.

2ـ من أدوات المطبخ البسيطة.

3 ـ ربّما رولان بارط يقصد كتاب : Rif, terre marocaine d'épopée et de légende, Attilio Gaudio, 1962

4 ـ إيطو، منطقة طبيعية في الأطلس المتوسط تقع بين أزرو والحاجب.

المصدر:
Roland Barthes, Incidents, Paris, Seuil, 1987.

قوة الطبيعة والعلم والسياسة

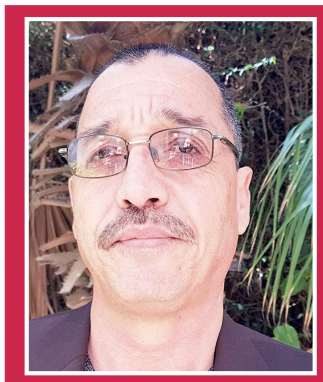

محمد بقوح

قوة الطبيعة ضد العلم

لقد صدق الفيلسوف الإغريقي طاليس الملطي (نحو 624-546 ق.م)، صاحب نظرية الماء المعروفة فلسفيا، عندما قال (الماء أصل العالم). لهذا، تحتل رمزية الماء في الحضارة الإنسانية موقع الصدارة، ذات قيمة عظمى في المخيل المشترك للأفراد والجماعات. إنها قوة الماء المتجددة التي تعبر، دون أدنى شك، عن الفعل السيادي الحر لهيمنة الطبيعة على وضعنا البشري، على الأقل، في عصرنا الذي غالبا ما يوصف بالتقدم والتطور، في مجال العلم والمعرفة إلى حدّ الغرابة والإدهاش والإعجاز أحيانا، حيث أن آخر ما بات ينعم به العقل البشري في عالم التكنولوجيا المتقدمة، هو صيحته الصارخة في ميدان سرديات الذكاء الاصطناعي، التي غيرت مفهوم الإنسان، على الأقل بالنسبة لفهمهم وتصورهم، كمهيمنين جدد على العالم، وحررت لعاب العديد من جهات الأفراد والمؤسسات، المنخرطين في ركوب موجة هذا التطور التكنولوجي السريع، في سبيل البحث عن البديل الحضاري الرقمي للعقل البشري الطبيعي. وهم بذلك كله، يتسابقون متهافتين إلى العلم الذي يعني الصناعة الرابحة في غياب الحس الأخلاقي والثقافي. كأنهم يزعمون، ويكرسون نظرية موت الإنسان بمعناه التقليدي، بالتحكم الكامل للعلم التقني والصناعي، بكل تجلياته وأبعاده الرقمية، في العالم الطبيعي المحيط بالإنسان الجديد. إنه الوضع البشري المزيف الذي تنفيه وتكذبه طبعا حقيقة الواقع الإنساني الراهن، بالنظر إلى ما تعكسه الكثير من المواقع الجغرافية في خرائط العالم، فيما يخص مثلا، التغيرات المناخية «المتطرفة» التي باتت تفرض نفسها على الكائن البشري، وتهدد أمنه وسلامة كوكب الأرض بكل ساكنته وحيوانه ونباته. هل هو تمرد الطبيعة الخالصة، ضد الإنسان التائه الذي خرج بدوره عن نظام القانون الطبيعي للحياة، بنهجه المتصاعد للسلوك الشاذ الذي لا يحترم الطبيعة. لهذا، كان رد هذه الطبيعة عن طريق الكوارث الطبيعية، مثل الزلازل والفيضانات، ضد ذلك السلوك المنحرف غير الطبيعي للبشر، أشد وأقسى وأعنف لمنظومة الكائن الحية على هذه الأرض.

قوة العلم وسلطة الطبيعة في المجتمع

تكتفي قوة العلم هنا، كتقنية صناعية، برصد نوع الخطر المحتمل للطبيعة، كفيضانات مدينة القصر الكبير مثلا، عن طريق عيون الأقمار الاصطناعية، بإعداد وصياغة النشرات الإنذارية والتواصل مع الناس لإخلاء المكان الذي سيحتله الماء، لاحقا. يعني، بضرورة الاستجابة لسلطة الطبيعة، وإجبار الإنسان صحبة علمه على الخضوع لأمر الواقع.

من هنا، نعتبر أن ما يسمى ب «التقدم العلمي» بمعناه التقني، وليس الفكري، الذي يحاول نفي وإعدام الطبيعة أو الإساءة إليها، بتجاوز ما هو ثقافي في علاقة العلم بالتقدم، وحدود الانسجام التام مع قوانينها الطبيعية، حيث يشكل الإنسان ذاته جزءا منها، هو تأسيس مرعب لميتافيزيقا جديدة، وجرح وجودي جديد في جسد الوطن، وبداية توليد قسري لشروط الابتعاد عن التقدم الحقيقي الذي يفترض أن يخدم الإنسان على هذه الأرض، بدل الإضرار به وبمحيطه البيئي، كما نلاحظ اليوم. بل، إنه الجنون الذي تواجهه الطبيعة الخالصة بجنون مدمر أقسى، وأحيانا مميت.

ولعله الانطباع العملي العام الذي يخلفه في النفس، مشهد اكتساح مياه الأمطار الغزيرة والفيضانات الطوفانية غير المسبوقة، التي عرفها المغرب حديثا، وطيلة الشهور الأخيرة، في جهة الشمال الغربي للمملكة (الريف والأطلس المتوسط)، الشيء الذي أدى إلى إغراق عدة مناطق بالماء، الواقعة بالقرب من الأنهار الجارية، مثل مدينة القصر الكبير المتاخمة لنهر اللوكوس. ومن ثمّ، أدى ذلك كله، إلى ضرورة إخلاء وترحيل ساكنتها المحلية بالكامل، من طرف السلطات المغربية، إلى المدن المجاورة الأقل تضررا، مثل تطوان وطنجة ووزان والعرائش وسدي قاسم.. إلخ. إن الماء هنا، كقوة طبيعية، يفرض نفسه على الإنسان الذي أصبح الحلقة الأضعف، ليخضع لها، ضمانا لأمنه وسلامة حياته الخاصة والعامة. وبذلك، يقدم هذا الوضع البشري المستجد، بكل مشاهده المأساوية والإنسانية، حجة القاطعة على جمود العقل التقني، وفشل السياسات التي تعتمدها نخبها في التسيير. في المقابل، ينتصر نفس الوضع لسلطة الطبيعة الخالصة التي ما فتئت تتصرف، كما كانت تفعل منذ العهود الغابرة، بذات الطريقة الطبيعية الأصلية، دون تغيير.

قوة الطبيعة ضد العلم والسياسات العمومية

هكذا، يمكننا تسجيل خلاصة أساسية هامة، مفادها أن قوة الطبيعة ظلت كما كانت منذ القدم، ذات سلطة الهيمنة القصوى على سلطة العلم، وأن السياسات العمومية التي تزعم أنها وجدت لضمان أمن المواطن، وتحقيق سلامة حياة الإنسان، والحفاظ على ممتلكاته الخاصة، لا تعدو أن تكون مجرد ادعاء أو عجز أو أوهام، تتبخر عندما يجد هذا الإنسان البسيط نفسه في شروط الخطورة، محاصرا بأذرع عنف الطبيعة، لأن عالم السياسة والسياسيين هنا يتراجع، كما فعل عالم العلم، إلى الخلف والتواري، لترك المكان فارغا تحتله سلطة الطبيعة القاهرة، كفيضانات الأمطار بالقصر الكبير، والأطلس والريف، لسبب بسيط هو أنهما معا (العلم والسياسة) وسائل وأدوات وليسا غايات). وبالتالي، نتساءل هنا، عن الدور الوظيفي والاستشرافي للبحث العلمي، والتشريع السياسي لمغرب الغد، الذي يفترض أن تنهض به الدولة، من أجل التفكير والتدخل المستعجل، استيعابا للدروس التي مضت والأخرى التي ستأتي!!

بلاغة الفقد

في رواية «أوراق من ملفات مؤجلة» 1 للروائي المغربي عبد الجليل الوزاني التهامي

د. محمد سعيد البقالي

استهلال لا بد منه

تتيح الممارسة الروائية إمكانات هائلة للمبدع لأجل بناء عالمه الروائي وتشييده وفق رؤية يراها الأنسب لتحقيق ذلك، وبالنظر إلى هذه الإمكانات، فإنّ بلاغة الرواية لا تتقيد بمواضعات ومعايير ثابتة، وإنما تنفتح على الممكن والمحتمل الذي يمنحه الكون الروائي ذاته للتعبير عن انفعالات ومواقف ما كان لها أن تنجلي للقارئ لولا الطاقة التي يختزنها الروائي، لتتحول بفعل عمليات واعية إلى نص مبدع قابل للقراءة ومن ثم التأويل.

وقد حفّزنا ذلك على تتبع موضوعة مهيمنة في الرواية وهي موضوعة الفقد محاولين استخلاص تجلياتها، آملين في الكشف عن فاعليتها في تحقيق بلاغة الرواية من جهات عدة؛ من ضمنها هذا المعطى الذي سميناه ببلاغة الفقد، والحقّ أن الفقد أو الفقدان في الرّواية ليس غريبا عن أجوائها وعوالمها؛ بل هو فن كذلك، وحيثما وجد الإنسان يوجد الفقد منذ آدم الذي فقد الجنة بسبب غواية الشيطان فقطف التفاحة، مرورا بكثير من الحوادث في التاريخ التي يكون للفقد فيها طعم، ومع امرئ القيس الذي أصبح ضليلا لضياعه ملكا كان من نصيبه، وجيش طارق بن زياد الذين فقدوا سفنهم فما كان لهم إلا الصبر والتقدم إلى الأمام. وفي هذا السياق ذاته نستحضر الرواية الحائزة على جائزة الغونكور في فرنسا بعنوان «فن الفقد» «L'art de perdre» للكاتبة الفرنسية الشابة «Alice Zeniter».

أي رهان لبلاغة الفقد في الرواية؟

لا بد من الإلماع إلى أن بلاغة الفقد ستتطّلع في الرواية إلى أن تكون محاولة كاشفة عن حضور تيمة الفقد وأثرها على مجريات الأحداث، بوصفها تختزن إمكانات بلاغية عدّت لنا ونحن نتابع مصائر الشخصيات وعلاقاتها في رواية «أوراق من ملفات مؤجلة» لتعكس جمالية هذه الرّواية وفنيّتها التي لا تحضر فيها الفقد أو الفقدان فحسب، وإنّما أحاسيس أخرى قام بستنطاقها الكاتب وهي تستند في بلاغتها على ما تختزنه اللغة من سمات قد تفلح في تحقيق بلاغة الرّواية وعلى رأسها بلاغة الفقد؛ إذ فرضت نفسها بشكل لا يمكن تجاوزه ولا تخطيه. بل إنّه يستوقف القارئ من أجل استكناه ما ينطوي عليه من خيبات وانتكاسات وعواقب ومآس تكبّدتها الشّخصياتُ في الرّواية كان للكاتب دور فعال في تحققها نصيا بالشّكل الذي صارت إليه في الرّواية، حتى إنّ تمظهراتها في الحكاية جعل الرّواية تستجيب لمتطلبّات فنّية تجعل من الفقد أساسا وجوهرا تنبني عليه الرواية أكثر من أي شيء آخر. لذلك أمكننا القول، إنّ بلاغة الفقد في رواية «أوراق من ملفات مؤجلة» هي جملة من الإمكانات التي حاول المبدع «عبد الجليل الوزّاني» تصريفها مع جلّ الشخصيات إن لم نقل كلها. ولذلك سنحاول أن ننطلق من الرواية لا أن نملي عليها قضايا إسقاطية قد تعصف بجوهر الحكاية وروحها.

عوالم الرواية

تستهل الرواية بوصول بطل الرواية وهو «جمال الأحمدي» باعتباره فاعلا مركزيا بتعبير الناقد «سعيد يقطين» ليستقر في العاصمة الرباط؛ أي المركز قادما من مدينة تطوان، وهو كاتب روائي سافر إلى الإمارات العربية لحضور مهرجان الرواية العربية «بأبو ظبي»، وكانت المناسبة فرصة سانحة له للقاء الرّوائيين والنقاد والصحفيين والصحفيات، وهي مناسبة كذلك لتجديد دماء الإبداع. وليكون المبدع تحت تسليط الأضواء كذلك. وفور عودته من «أبو ظبي» سيصرّ البطل على ضرورة حضور ملتقى السرد بتطوان؛ فهو الكاتب المتمرس الذي ألف التواجد في اللقاءات الثقافية هنا وهناك. يقول: «فقد أقنعت زوجتي بضرورة حضوري للملتقى، لأن أحلام القادمة من الكويت من أجل إعداد ملف حول تجربتي الروائية بحاجة إلى شهادات بعض الأصدقاء»2.

لقد شاءت الأقدار أن يلتقي البطل بصحفية كويتية شابة في مهرجان الرواية العربية، ليتضح فيما بعد أنها تنوي السّفر إلى المغرب لإعداد تقرير حول تجربة «جمال الأحمدي»، أو بالأحرى البحث عن الحقيقة الضّائعة، وهي حقيقة النسب، والسّارد «جمال الأحمدي» أحد مفاتيح هذه الحقيقة، وشاهد عيان على بلورتها قبل ثلاثين سنة.

لقد رام الكاتب من وراء سرد هذه الأحداث الرّوائية تجسيد شخصية «أحلام» الباحثة عن الهوية بعد لقائها بأمها «زبيدة» في مهرجان الشّعر بدبي وبجدّتها بعد التحاقها هي الأخرى بدبي حيث تظْهرُ الوقائع أنها من تكفلت برواية جانب من الحقيقة لـ»أحلام» بعد إحساسها بدنوّ الأجل، فأبت إلا أن تصفيَ ما علق بذمتها، وهو أمر مشكوك فيه حسب الرّاوي بعدما توصل برسالة من «زبيدة» أعادت كل شيء إلى نقطة الصفر3.

وللتذكير، فإنّ البطل يتقاسم و»رؤوف» أحد شخصيات الرواية التعلق بـ «زبيدة» وعشقها؛ فمن جهة البطل «جمال الأحمدي» فهو حبّ من جانب واحد وغير معلن في الوقت ذاته، وعلاقته بـ «رؤوف» علاقة صداقة لا يمكنُ أن تتأثر بغواية امرأة، فشاءت مصادفات الحكي أن يحجب عشقه للمرأة ويفصح عنه للقارئ في نوع من التواطؤ الجميل. بيد أنه شاءت الأقدار الروائية، والخطة السردية المخاتلة أن يُسجن «عبد الرؤوف الماجدي» لآرائه السياسية ومواقفه اليسارية، فيما سيتمكن «جمال الأحمدي» من الهروب من الاعتقال لا لشيء سوى لإتمام الحكاية باعتباره مالكا لناصية الحكي والحقيقة معا.

وإذا كان السّارد يعترف في سياق سرد الأحداث بأن «زبيدة» تمارس هوايتها المفضلة، وهي لعبة الاختفاء والظهور من أجل أن تجود بلقاء وأحد معه4، فإنّ «جمال الأحمدي» بدوره يمارس لعبة من نوع آخر؛ إنها لعبة السّرد حين طفق بزجٍّ القارئ في متاهاته السّردية منذ الصفحات الأولى بحثا عن أفق للمتخيل عن طريق خلق شبه كبير بين الأم «زبيدة» وابنتها «أحلام» ليفسح لمخيلته فرصة استعادة وقائع جرت في الماضي زمن الشباب. تقول «أحلام»: أيعني هذا أنني كثيرة الشبه بها؟5 دون أن يساورنا شكّ في كون استيهامات السارد كذلك والمستمرة على طول الرواية بخصوص مصير «أحلام» وتساؤلاته المتلاحقة بشأنها أفرز نوعا من المدّ والجزر بين ثنائية الحضور والغياب المذكورة سلفا؛ فقد نجح الكاتب في توظيف هذه الشّخصية وإضفاء طابع التّشويق على الأحداث المرتبطة بها، وفي غيابها يظلّ السّؤال معلّقا حول اختفائها ومصيرها، وكمثال على ذلك عندما كان «جمال الأحمدي» يتصل بها

أو بـ «وجدان» ليجد هاتفيهما خارج التغطية، وفي ذلك توتير للقارئ وشد للانتباه أمام التوقعات والتكهنات الممكنة.

معالم الفقد في عوالم الرواية

إن الحديث عن الفقد في الأعمال الإبداعية هو حديث لا منته؛ فهو أشبه بالإيحاش في مقام الأنس، ولا توجد رواية لا تحتفي فصولها بالفقد والضياع والمعاناة والغربة، وفي المحصلة فإن متعة الرواية تتمخض من رحم المعاناة والفقد بشكل أساس.

ولاستقصاء معالم الفقد في عوالم الرواية ينبغي أن نتتبع تجلياته داخل المتن من خلال تسليط الضوء على مسار الشّخصيات التي وظفها الكاتب في روايته، على أنّ تكرار الفقد وتواتره على مدار الرواية بتجلياته لا بمفهومه، بحيث يحضر الفقد كلما استدعى السارد شخصية يودّ سرد حكايتها؛ إذ بات استدعاء كل شخصية مرهوناً بالفقد..إن الفقد هو بمثابة بلور النص بتعبير «عبد الكبير الخطيبي» أو بؤرته التي تلتف حولها باقي التيمات وإن بشكل متفاوت إلى درجة أصبحنا نتوقع فيها الفقد مع كل شخصية يقوم السارد باستدعائها، دون أن يخرق أفق توقعنا في ذلك، ليغدو هذا الفقد مركبا بل ومعقّدا تمتد خطوطه وخيوطه بين فقد روحي ونفسي واجتماعي وعاطفي وجداني نجح الكاتب في بلورته بالشكل الذي صيغ في قالب روائي رائق.

وإذا كان حادث الاغتصاب مثلا ينتمي إلى زمن مضى ربما تجسّده واسطة هذا الثالوث: «امرأة في الظل» فإن الاغتصاب الذي تعرضت له «زبيدة» و«زينب» هو اغتصاب للأنوثة لا يملك معها السارد إلا الاحتفاظ بركام من الأوراق التي حملها إليه ذلك الشاب ليقرر تأجيل النظر فيها كما لو أنّه محام من طراز رفيع سيعيد الحقّ لأصحاب الحق، بيد أننا لن نفكر في ذلك ما دام أنه يصرح في مستهل الرواية في كونه كاتبا روائيا وكفى، ليذكرنا بما فعله «طه حسين» مع صديقه الـ«أديب».

من المفارقات العجيبة ذات الصلة بالفقد في الرّواية هو أنّ شخصية «أحلام» القادمة من جنح الظلام استطاعت أن تجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة مقارنة مع أبناء «عبد الرؤوف الماجدي» القادمين من عوالم النّور والعهدة على الرواي، ليجدوا في الحياة ضنكا وضيقا في العيش وصل مداه بالتحاق «ابن رؤوف» بعناصر داعش لتتداول وسائل الإعلام خبر مقتله في سوريا، وهي نهاية مأساوية ستعقبها مآس أخر جعلت من «أحلام» تصرف النظر، مع تقدم السّرد، عن البحث عن والدها الذي هو «رؤوف الماجدي»».

كما أنّ تصويرَ معالم الفقد في الرّواية مكن الكاتب من أن يعرّج ويشهد على خراب المجتمع بين السّرقة والانغماس في الملذات الحسية والسّكر والتهريب والسرقة ممثلا في «ابنة رؤوف» والانحراف «جمال الأصغر» والانضمام إلى صفوف داعش فضلا عن تسليط الضوء على تحولات ومظاهر اقتصادية واجتماعية حولت تطوان إلى سوق عشوائي كبير بسبب الباعة المتجولين؛ على أن في كل سوق سوقا آخر، وكل هذه الظّواهر وغيرها جعلت الشخصيات تتيه وتضيع في عالم متغير وتنحدر نحو الأسوأ، باستثناء «أحلام» التي كان تملك بطاقة الجوكر متمثلة في جنسيتها الكويتية مكنّتها من أن تستقل الطائرة مرّة أخرى ومغادرة المغرب إلى غير رجعة دون رغبة في البحث عن الهوية؛ فتحقيق الذّات بالنسبة إليها يمكن أن يتحقّق عبر روافد أخرى كالبيت والزوج والأسرة والأطفال من دون حاجة إلى النبش في الماضي الذي أبى السّارد إلا أن يزج بـ«أحلام» في مستنقعه الآسن بحثا عن سراب، لتضطر إلى الانسحاب وهي تغالب انكساراتها التي لم تكن لها يد فيها، تاركة «جمال الأحمدي» تائها هو الآخر في غياهب الأوراق؛ أوراق زينب «ابنة الرايس امْحَمّد» التي لم تستنفد روايتا «احتراق في زمن الصقيع» أو «امرأة في الظل» قصّتها من تارغة وما حدث بظهر العرعار أو في الهروب إلى مدينة تطوان كحلّ للتخفي من العيون المتربصة. ليصطدم هو الآخر بموت أمّه، بشكل مباغت، وعدم تمكنه من لقاء ابنه غير الشرعي «جمال الأصغر» رغم وصية أمه بذلك.

من تجليات السرد الفادحة لأسلوب الروائي المخاتل أنّه يوهمنا بتأسف «جمال الأحمدي»/السّارد على ضياع الخيط الذي سيوصله إلى ولده «جمال الأصغر»6، حتى وهو في مراسيم العزاء لم يتمكن من الانفراد به ليظل البحث قائما إنْ لم نقل معلّقا ما دام أنّ الكاتب على وشك وضع أوزار نهاية الرواية. ويصل الفقد منتهاه بتضمين اسم مدرسة «أبو البقاء

الرندي» لتحمِلَ بدورها دلالة الفقد في أحلك صورها، ويرسم بذلك صورة قاتمة للمكان الذي تقع فيه المؤسسة: «اخترقت السيارة أزقة ملتوية، صعودا وهبوطا ثم صعودا، ثم انتهى بنا المطاف بحي هامشي شُيّد بشكل عشوائي. طلب مني التوقف، وأشار إلى بناية شكلت مدرسة «أبي البقاء الرندي»». قال:

ـ تلك هي المدرسة، وإقامة المدير بالجانب الخلفي.

توقفت جانبا، وقد شدني القرف للوضعية المتردية للمكان...» 7.

تتماهى هذه الصورة، بشكل أو بآخر، مع صور الفقد من خلال استدعاء اسم الشاعر الأندلسي «أبي البقاء الرندي» تصريحا، ومرثيته للأندلس تلميحا، وهو استدعاء غير اعتباطي، ومن خلال ثنائية الصعود والهبوط إمعانا في تصوير معالم الضياع والفقد فقد أبدع الكاتب في انحيازه مرة أخرى إلى تعميق تجليات الفقد في الرواية كما لو أن طموحه هو الإيغال في هذا التصوير لكسب الرهان الجمالي الذي تتأسس عليه الرواية في صورتها الكلية.

وبهذا المعنى، فإنّ هواجس الفقد تسكن معظم شخصيات الروائي «عبد الجليل الوزاني» وتجتاحها الشخصيات بدءا من «جمال الأحمدي» وصولا إلى «جمال الأصغر» الذي يعاني بدوره مرارة الفقد والضياع؛ أو ليس ذلك صورة أخرى من صور «أحلام» أو «زكرياء ولد رؤوف» لانتمائهما إلى جيل واحد، ولولا حيلة «زبيدة» ودهاؤها لكانت في عداد المجهضين. غير أنّ بقاءها على قيد الحياة أجهض كثيرا من أحلامها التي لم تتمكن من تحقيقها.

فضاء المحكي

من عوالم الحكي في الرّواية يمكن أن نتّفق على أنّ فضاء تطوان يشكّل بؤرة مركزية للحكي؛ ففي محكيات المبدع «عبد الجليل الوزاني» خاصة «امرأة في الظّل» ألفيناه ينقل رحى الأحداث إلى مدينة تطوان مستقدما إيّاها من تارغة، وفي رواية «احتراق في زمن الصقيع» على سبيل التمثيل لا الحصر. لكن رواية «أوراق من ملفات مؤجلة» تبتدئ فيها الأحداث من الخليج ليعود السارد إلى أرض الوطن الرباط، ثمّ ليقرّر التوجه مع تقديم تبرير لهذا السفر الداخلي، وكأننا به يهيم بتطوان، لأن دروبها وأزقتها وحاراتها وكثيرا من أسرارها تمنح الكاتب مقاليد الحكي، والقدرة على التخييل، فهو لا يريد أن يرتوي من نبع آخر سوى نبعها، لذلك نراه وفيا لفضاءات تطوان، مفتخرا بالنشأة والانتساب الإبداعيين لها.

كان استدعاء «أحلام» للمغرب وإلى تطوان تحديدا تعلّة للسّارد «جمال الأحمدي» لكي يروي حكايته التي تضيء جوانب معتمة من الحقيقة التي تبحث عنها «أحلام»؛ هذه الأخيرة حاولت غير ما مرة استدراج السارد، حيث تتغير المواقع بين السارد و«أحلام»، وكمثال شاهد على ذلك، نقتطف نصا: «قالت عائدة بالحديث إلى ما كنت أظن أنها لم تبال به. قلت قبل قليل إنك وقعت في محظور أسوأ، أحس أنك قصدت التعتيم على أمر يؤرقك »8. فإذا كانت «أحلام» تقف في موقف مقابل لـ«جمال الأصغر» الذي ظل مركونا في الظل إلاّ عندما يأذن له السارد بالتموقع على مسرح الأحداث، فإن «أحلام» قدّر لها، ضمن لعبة السرد، أن تسير في خطّ متواز مع السّارد الذي يحمل بين جوانحه قصة مماثلة وسرا ملغزا، أو إثما محظوراً في علاقته بـ«زينب بنت الرايس امْحَمّد».

زمن الرواية بين الفقد والانفلات

إنّ الزّمن في الرّواية عموما عنصر مهمّ من العناصر البانية للعالم الروائي، وفي رواية: «أوراق من ملفات مؤجلة» زمن يقع بين لحظتين فارقتين: أولهما ينتمي إلى الماضي يعود السارد ثلاثين سنة للاسترفاد منه ما يرتق به حكاية الحاضر ويرمّم كثيراً من لبناتها، ويلقي بالضّوء على كثير من القضايا التي ظلت معتمة حتى وإن كانت الرواية في الأصل جزء من ثلاثيّة روائية للكاتب، ثانيهما ينتمي إلى الزمن الحاضر ولا يتعدى أسبوعا واحدا، وهو الزمن الذي كان معرضا للضغط الحكائي حتى ينجز الكاتب مهمته على أكمل وجه، ويظل ماسكا بتلابيب الحكاية. غير أنه يعمد إلى التداخل بين الزمنين طلبا للإثارة، ومداراة للخطية الفجة التي بات القارئ يرفضها لكونها تستهين بقدراته.

وتبعا لذلك يصارع السّارد في الرواية الزمن من أجل تحقيق العديد من الأشياء التي راهن عليها منذ البداية، وهي البحث عن «رؤوف» من قبل «أحلام» في مدّة لا تتجاوز بضعة أيام، والبحث عن جمال الأصغر...وكلما صعبت المهمة يعود السّارد بذاكرته إلى الوراء لتشغيلها بحثا عن تناغم بين أحداث جرت في الماضي وأحداث يحركها بمشيئته، مثلما حدث مع استرجاع لحظات عاطفية من الماضي عن طريق «أحلام» وهي نسخة من أمّها...مع استحضار كثير من الحقائق التاريخية لـ«تطويق المسرود» في الرواية من قبيل: سنوات الرصاص، الربيع العربي والاستثناء المغربي، وشبح التطرف الديني، والتدافع بين اليسار... كجزء لا يتجزأ من حكايته. وعموما، فإنّ الزمن يتسع كلما انصرف الحكي إلى الماضي الذي يمثل ذاكرة النّصّ يسترفد الكاتب من معينه، ويتقلّص متى تعلق الأمر بالحاضر.

على سبيل الختم

لا يمكن إلا أن نجزم بتعدد المرويات لا بتعدّد الأصوات في الرواية، والرواية بهذا المعنى تنهج أسلوب الحكاية داخل الحكاية، وحكايات متجاورة، كما لو أنّ الكاتب يلقي بحجر في بحيرة لتتشكل دوائر سردية تبعا للأحداث المروية والمنقولة على لسان السارد، ثم إنّ الرّواية بعوالمها حاولت أن تربك حسابات القارئ، غير ما مرّة، خاصة عندما فكر «جمال الأحمدي» العودة إلى الرباط بعد تلقّيه مكالمة هاتفية مباغتة من ابنته «شذى» تخبره بقدوم شاب ملتح يسأل عنه لغرض توتير الحكي. والحقّ أن الرّواية يمكن اعتبارها رواية مفعمة بالأحاسيس الإنسانية، ورواية الفقد بامتياز حيث استطاع «عبد الجليل الوزاني» أن يجمع مادّته بكثير من الحرفية والدّقة كما لو أنّنا أمام رقعة شطرنج، أو، إن صحّ القول، أمام مهندس لمجموعة من العمليات السّردية داخل نسيج الرواية، ويوفّق بين عناصرها في نوع من التوليف الذي لا يتاح إلا لمن راكم خبرة ومراسا ودربة مشهود له بها.

هوامش:

1 ـ أوراق من ملفات مؤجلة، عبد الجليل الوزاني، الطبعة الأولى 2019م، نشر مكتبة سلمى الثقافية (طبع الرواية بدعم من وزارة الثقافة والاتصال)، تطوان، المغرب.

2 ـ الرواية، صص: 28 ـ 29.

3 ـ الرّواية، ص: 22.

4 ـ الرّواية، ص: 23.

5 ـ الرّواية، صص: 28 ـ 29.

6 ـ الرواية، ص: 43.

7 ـ الرواية، ص: 104.

8 ـ الرواية، ص: 42.

الرابطة الدولية للأدب المقارن في عيدها السبعين بسيول

الأدب المقارن والتكنولوجيا

فاتحة الطايب

في كوريا الجنوبية ،التي تمكنت في غضون حوالي سبعين سنة من أن تصبح إحدى أكبر عشر اقتصادات في العالم ،احتفلت "الرابطة الدولية للأدب المقارن" بعيد ميلادها السبعين خلال المؤتمر الدولي الذي عقدته في سيول مابين 28 يوليوز و1 غشت 2025 ، في موضوع: «الأدب المقارن والتكنولوجيا»(1) ، بالشراكة ما بين "جمعية شرق كوريا وغربها للأدب المقارن» وجامعة دونكوك.

Dongguk U President-Jae-Woong Yoon

تمهيد

تجدرالإشارة إلى أن هذا الموضوع ،الذي تم اختياره من أجل تشجيع الحوار متعدد التخصصات ودراسة التقاطعات بين التقاليد الأدبية والتكنولوجيات الناشئة(2)، موضوع يترجم، من ناحية، مسار بلد يرتكز تطوره الكبير والتقدم التكنولوجي الذي عرفه في بضعة عقود على ابتكار ثوري يتصل بعمق ثقافي تليد تتم رعايته بذكاء، وفي هذا السياق ذكرت رئيسة الرابطة السابقة الدكتورة لوتشيا بولدريني في كلمتها الافتتاحية أن من بين الأسباب التي أدت إلى اختيار كوريا الجنوبية محتضنا لهذا المؤتمرالمخصص للأدب والتكنولوجيا «هو أن كوريا،وبخلاف السائد، تعد أول بلد اخترعت فيه المطبعة ذات الحروف المعدنية المتحركة ،وقد استخدمت عام 1377 لطباعة كتاب جيكجي عن التعاليم البوذية، الذي يعد الآن جزءًا من برنامج ذاكرة العالم التابع لليونسكو"(3). من ناحية ثانية ،ويترجم موضوع المؤتمر مسار "الرابطة الدولية للأدب المقارن" التي بدأت نشاطها بالبندقية عام 1955 بمؤتمر في مجال من أعرق مجالات الأدب المقارن هو مجال الصورلوجيا .فالمسافة المعرفية والمنهجية الفاصلة بين موضوع المؤتمر الأول المنعقد بأوروبا: «البندقية في الآداب الحديثة» وموضوع المؤتمر الرابع والعشرين المنعقد بآسيا: «الأدب المقارن والتكنولوجيا»، مسافة تكشف التطور الحاصل في إطار حقل الأدب المقارن انطلاقا من المؤتمر الثاني بشابل هيل عام 1958 الذي دشن بداية تجاوز الأدب المقارن لنطاقه الأوروبي الأصلي وشكل لحظة حاسمة في إعادة توجيه الدراسات المقارنة (4). مع العلم أن الأهمية الكبيرة التي اكتسبتها الدراسات متعددة التخصصات في تسعينات القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة بوجه خاص، قد أدت إلى أن يتعمق تطور هذا الحقل المعرفي على مستويين متلاحمين ساهما في توسيع حدوده وآفاقه: مستوى التداخل والتشابك بين الحقول والاختصاصات، ومستوى دمقرطة المعرفة الإنسانية والاحتفاء بالهجنة والاختلاف .

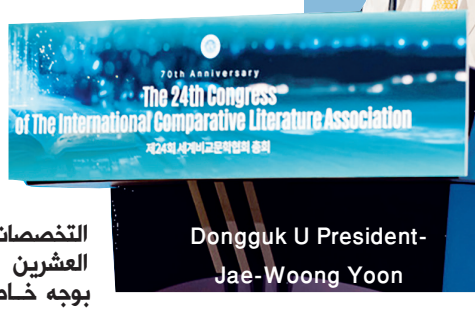

في إطار توسيع آفاق الدرس المقارن، نسجل أن "الرابطة الدولية للأدب المقارن" قد أعلنت بموضوع مؤتمرها الأخير في سيول وباعتمادها «لجنة بحث في الأدب الرقمي المقارن «(5)، نهاية تحفظ الأدب المقارن بخصوص مجال الإنسانيات الرقمية المتنامي ،والحال أن هذا المجال قد أصبح يشكل جزءا لا يتجزأ من محاورمؤتمراتها الدولية ابتداء بالمؤتمر الرابع عشر المنعقد بكندا عام1994في موضوع:»الأدب المقارن في الوقت الراهن: النظريات والتطبيق».

1 -"الرابطة الدولية للأدب المقارن"، واجهة المقارنة العالمية

1.1.المؤتمرات الدولية: تنويع الموضوعات وتجاوزالحدود: إلى حدود مؤتمر سيول 2025 تكون "الرابطة الدولية للأدب المقارن" قدعقدت أربعة وعشرين مؤتمرا بنسبة مؤتمر كل ثلاث سنوات ،نذكر منها المؤتمرات الآتية التي تم تنظيمها في الألفية الثالثة(6):

- المؤتمر السادس عشر في جنوب إفريقيا عام2000:» التحولات والتجاوزات في عصر التعددية الثقافية».
- المؤتمر السابع عشرفي الصين عام 2004:»على الحافة: الهوامش و الحدود و المبادرات في الأدب والثقافة ".
- المؤتمر الثامن عشر في البرازيل عام 2007: «ما وراء الثنائيات: الانقطاعات والتحولات في الأدب المقارن».
- المؤتمر التاسع عشر في كوريا الجنوبية عام 2010:»توسيع حدود الأدب المقارن».
- المؤتمر العشرون في فرنسا عام 2013:» المقارنة بوصفها مقاربة نقدية».
- المؤتمر الحادي والعشرون في النمسا عام 2016: «لغات الأدب المقارن المتعددة».
- المؤتمر الثاني والعشرون في الصين عام 2019: « أدب العالم ومستقبل الأدب المقارن».
- والمؤتمر الثالث والعشرون في جورجيا عام 2022 :»إعادة تصوُّر آداب العالم: عالمية ومحلية، مركزية وهامشية «.

حينما نتمعن في محاور هذه المؤتمرات فإن أول ما نستخلصه منها هو التطور الهائل الذي طرأ على مفهوم الأدب المقارن- بوصفه نشاطا متعدد التخصصات تتأسس مجالاته على شبكة معقدة من العوامل التاريخية والاجتماعية والنفسية والسياسية والاقتصادية والفكرية-حيث تشمل هذه المحاور بالإضافة إلى دراسات الترجمة ومختلف أنواع الدراسات العابرة للقارات ... دراسات عن الآداب الموازية وعن التفاعلات بين الأدب والعلوم الإنسانية والتجريبية، وبين الأدب وشتى أنواع الفنون (موسيقى، تشكيل، سينما، كاريكاتير، ...) ،ودراسات الجندروالميديا والإنسانيات الرقمية ...،إلى آخر القائمة.

ولعل أوضح مثال يلخص هذا التطورهو تخصصات المحاضرين الذين ألقوا محاضرات افتتاحية في المؤتمرات السالفة الذكر،ففي المؤتمرات التي حضرتها ما بين عام 2013 وعام2025تناوب على تقديم المحاضرات الافتتاحية محاضرون من مختلف الحقول والتخصصات، من بينهم: جون بول كوستا الرئيس السابق للمحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان المتخصص في القانون المقارن، وعضو الأكاديمية العلمية جون بيير شانجو المتخصص في علم الأعصاب، والروائية الأكاديمية فلورانس ديلاي والناقدة إيرما راشياني المتخصصتان في الأدب العام والمقارن، ورائدة دراسات ما بعد- الاستعمار المقارنة غياراتي شاكرافورتي سبيفاك،والمؤرخة مارينا وارنر الكاتبة المتخصصة في تحليل الأساطير، والمترجمة والناشرة إميلي أبتر المختصة بدراسات الترجمة والباحث المقارن نينغ وان المتخصص في علم الفيزياءوالروائي العالمي الحاصل على جائزة نوبل للأدب جون ماري لوكليزيو ...، فضلا عن متخصصين في شتى أنواع الآداب عبر العالم مثل الأدب السلوفيني والأدب الياباني والكوري والعربي ... (ماركو جيوفان ،طوشيكو إليس، يون جاي وونغ ـوين تشين أويانغ....).

في هذا السياق نسجل أن عقد التسعينيات ،الذي شهد تدويل الدراسات الثقافية المقارنة وظهور تيارات عديدة خارج الإطار الغربي في بلدان أمريكا-اللاتينية والجنوبية وكذلك في الصين واليابان والهند،... ، كان هو العقد نفسه الذي شرعت فيه "الرابطة الدولية للأدب المقارن"في توسيع النطاق الجغرافي للمواقع التي تعقد فيها مؤتمراتها بشكل ملحوظ. فانطلاقا من انعقاد المؤتمر الثالث عشر في اليابان عام1991في موضوع : "قوة الرؤية"، الذي تلا مؤتمر "الفضاء والحدود في الأدب " بألمانيا عام 1988 ، ستنضاف إلى قائمة المدن والعواصم الأوروبية والأمريكية الشمالية(البندقية، شابل هيل،باريس ،موريال ، ميونيخ ،...)،أسماء مدن وعواصم آسيوية وأمريكية-جنوبية وإفريقية (طوكيو،هونغ كونغ ،ريودي جانيرو، بريتوريا ، مكاو،سيول ،وتبليسي).

تنضاف إلى فضاءات المؤتمرات الدولية الخاصة بالرابطة الدولية للأدب المقارن ،فضاءات المؤتمرات التي تعقدها الجمعيات الوطنية للأدب المقارن و يساهم فيها أعضاء من مجلسها التنفيذي. من ذلك مثلاً :مدن الدار البيضاء و مكناس وفاس في مؤتمر» الادب المقارن والترجمة» الذي نظمته في المغرب»جمعية التنسيق بين الآداب المغاربية والمقارنة»(7)عام 2005 وشاركت فيه رئيسة الرابطةالدولية للأدب المقارن آنذاك الدكتورة تانيا كارفلياو إلى جانب الرئيس الفخري الدكتور جون بسيير(8)، والعاصمة نيودلهي في مؤتمر"الأدب المقارن كعلوم إنسانية بديلة: الأخلاق والعاطفة والحياة الاجتماعية"اليومية" الذي نظمته في الهند "الجمعية الهندية للأدب المقارن"(9) عام 2024 وحضره أعضاء المجلس التنفيذي للرابطة الدولية برئاسة الدكتورة لوتشيا بولدريني (10)، ومدينة أكادير في المؤتمرالذي تنظمه «الجمعية المغربية للأدب المقارن»(11)بالشراكة مع «لجنة البحث في الأدب العربي المقارن»(12) التابعة للرابطة الدولية للأدب المقارن في موضوع:"الأدب العربي والعالمية: نحوتأسيس حوار عالمي بين الذات والآخر"(13) في شهر أبريل من السنة الجارية،وفيه ستلقي الرئيسة الحالية للرابطة الدولية ،الدكتورة إيشيتا تشاندا،محاضرةافتتاحية.

ICLA Congress Chair-Youngmin Kim

2.1.اللجان العلمية :التخصصات المعرفية والفضاءات الجغرافية: تعد تخصصات اللجان العلمية التابعة للرابطة الدولية للأدب المقارن والفضاءات الجغرافية التي ينتمي إليها المشرفون عليها وأعضاؤها ،كاشفين جوهريين أيضا لمدى اتساع آفاق الأدب المقارن و حدوده ونعطي مثالا عن ذلك بلجان البحث الثلاث عشرة الآتية التي ساهمت في مؤتمر سيول الأخير (14):

ICLA President-Lucia Boldrinir

سلسلة التاريخ المقارن للآداب الأوروبية- آداب وثقافات جنوب آسيا- القصص المصورة والسرد الغرافيكي الجندرالمقارنة- التاريخ المقارن لآداب شرق آسيا – نظرية الأدب- الكتابي والدراسات المقارنة- دراسات الترجمة الدين والأخلاق -الأدب العربي المقارن- الأدب الرقمي المقارن- التواصل في الأدب: أوروبا-الأدب والفنون والميديا.

يترأس هذه اللجان العلمية، تحت إشراف الدكتورماثيو رينولدز من جامعة أكسفورد، أساتذة الأدب المقارن من مختلف المؤسسات الأكاديمية التابعة لمناطق جغرافية متعددة، وتتميز كل لجنة بتنوع الخلفيات الثقافية لأعضائها وخبراتهم الأكاديمية. فلجنة البحث في الأدب العربي المقارن باللغات دراسات - دراسات الاستدلال والأدب اللغوي

مثلا، التي تم اعتمادها في المؤتمر الأخير، تضم بالإضافة إلى الرئيستين والعضوين الفخريين من المغرب ومصر، أعضاء استشاريين من أجيال مختلفة من بينهم مقارنون مكرسون وأكاديميون في بداية حياتهم المهنية، عرب ومستعربون بمرجعيات لغوية وثقافية متعددة ينتمون إلى تسع مؤسسات أكاديمية عربية وعشر مؤسسات اكاديمية غير عربية، هي : جامعة القاهرة، جامعة محمد الخامس، جامعة أكسفورد، جامعة كاليفورنيا، جامعة قطر، جامعة شانغهاي للدراسات الدولية، جامعة شارل، جامعةدمشق، جامعة يورك، جامعة الملك سعود، جامعة المولى إسماعيل والمدارس الوطنية العليا للفنون والمهن بمكناس، الجامعة المستقلة بمدريد، جامعة فاووس، جامعة روما، جامعة تبليسي الحكومية، الجامعة الأمريكية بالشارقة، جامعة نابولي، جامعة صوفيا.

إن هذا التنوع في الخبرات والمناطق الثقافية، يعد عاملا أساسيا في تيسير سبل توسيع أفق تطويروإثراء الممارسات المقارنية المتعددة .

2 -مؤتمر سيول 2025: التفكير المقارن والتحول الرقمي

ربطت الرئيسة السابقة للرابطة الدولية للأدب المقارن الدكتورة بولدريني بين غنى وتنوع برنامج المؤتمروسرعة تغير العالم الذي نعيش فيه(15)،و أكد رئيس المؤتمر الدكتور يونغمين كيم في المقابل أن موضوعه يمثل مرحلة حاسمة في دراسات الأدب المقارن، تشكلت بفضل التقارب بين الأدب العالمي والعلوم الإنسانية الرقمية والفن عبر الوسائط(16)،مشددا على ضرورة المزاوجة في إطار الدرس المقارن بين الدراسة الأدبية المقارنة والدراسات متعددة التخصصات.

يقول في هذا الصدد :"نحن مدعوون، في عصر التطور التكنولوجي السريع هذا، إلى إعادة النظرفي دور الأدب ليس فقط كمستودع للذاكرة الثقافية، بل كواجهة ديناميكية بين الإدراك البشري والذكاء الآلي، بين الشعر والخوارزميات.وفي الوقت نفسه، يؤكد هذا المؤتمر على الأهمية الدائمة للأساليب الأساسية للأدب المقارن، وهي القراءة المتأنية، والسياق التاريخي، والتحليل عبر الثقافات. وبدلا من استبدال هذه التقاليد، تدعونا التكنولوجيا إلى توسيعها وإعادة صياغتها. ويحثنا التحول الرقمي على التفكير بشكل مقارن، ليس فقط عبر اللغات والثقافات، ولكن أيضًا عبر المنصات ووسائل الإعلام وأساليب إنتاج المعرفة»(17).

والحال أن التأمل في محتوى برنامج المؤتمر يدفعنا إلى القول إن ذيوع صيت الأدب المقارن بمفهومه الجديد وتطوره داخل الإطار الغربي وخارجه(الصين، الهند، اليابان، كوريا، البرازيل ، بعض الجامعات العربية، ...)،قد تحقق في ظل المزاوجة بين التحليل المقارن للنصوص الأدبية ودراسة الأدب في علاقته بالمعارف والفنون والخطابات المختلفة. مثلما توضح ذلك مثلا النماذج الآتية التي تشمل مواضيع المحاضرات الافتتاحية ومواضيع الجلسات الخاصة وجلسات اللجان البحثية الثلاث عشرة من ضمن ثلاثمائة وإحدى وستين جلسة علمية تم عقدها في المؤتمر .

-1.2المحاضرات الافتتاحية(18):

-جون ماري لوكليزيو (جائزة نوبل للآدب) :» قي سبيل ملء كيان آخر «. -يون جاي وونغ (رئيس جامعة دونكوك) :»شعراء خالدون :ولادة جديدة للأدب».

-أوتشانغ كيم (جامعة كوريا،جمهورية كوريا) :»حقيقة الحياة والتنوع". -ديفيد داموروش(جامعة هافارد،الولايات المتحدة الأمريكية):»الحروب اللغوية :عوالم نصية في صراع ».

-ني زينزهاو(جامعة قوانغدونغ للدراسات الأجنبية / جامعة تشجيانغ بالصين): "الأدب الشفوي والمبادئ الإدراكية للنص الدماغي».

-وين تشين أويانغ(جامعة لندن،المملكة المتحدة):»مسرح الظل،أساليب الرؤية والأدب المقارن: نحو التعددية اللغوية كمنهج ».

-ساندرابيرمان(جامعة برينستون،الولايات المتحدة الأمريكية):الترجمة واللغة و»التبادلية»الأدبية: نحوأدب مقارن تعددي ».

2.2.الجلسات الخاصة وجلسات اللجان البحثية(19): علاوة على ثلاث جلسات خاصة خصصت الجلسة الأولى منها لذاكرة العالم التابعة لليونسكو برئاسة يونغمين كيم ، والجلسة الثانية للأدب الكوري والأدب العالمي والنشر العالمي المحلي احتفالا بحصول هان كانغ على جائزة نوبل في الأدب برئاسة كواك هيو هوان، والجلسة الثالثة للذكرى السبعين لتأسيس "الرابطة الدولية للأدب المقارن" برئاسة لوتشيا بولدريني وجولد سميث ، ضم المؤتمر مائدة مستديرة حول الذكاء الاصطناعي والأخلاق برئاسة ماثيو ريتولدزبعنوان :

"العيش مع الآلات: الأدب المقارن والذكاء الاصطناعي وأخلاقيات الخيال الرقمي" .

في المقابل، تمحورت جلسات اللجان البحثية حول المواضيع الآتية :

- "الآداب باللغات الأوروبية في عالم ما بعد- أوروبا : الكتابة الأوروبية وآداب أوروبا الشرقية والآداب الصغرى"(سلسلة التاريخ المقارن للآداب باللغات الأوروبية).

-"تحرير "الأدب العالمي" من الاستعمار: وجهات نظر حول الفنون الشفوية والآداب من جنوب آسيا" (آداب وثقافات جنوب آسيا).

-"ما وراء الأقنعة والعباءات : مقارنة الأعمال البطولية في السرود الغرافيكية" (دراسات القصص المصورة والسرد الغرافيكي).

-"وساطات محفوفة بالمخاطر: الأجساد المثلية في الفضاءات الافتراضية"(دراسات الجندر المقارنة).

-"تاريخ الأدب الآسيوي: الروابط والترجمات وإعادة الابتكار"(التاريخ المقارن لآداب شرق آسيا).

-"نظريات التخييل في عصر الميديا" (نظرية الأدب).

- "الاستدلال الكتابي والأدب المقارن" (الاستدلال الكتابي والدراسات المقارنة) .

- "مستقبل الترجمة" (دراسات الترجمة).

-"الأدب بوصفه تقنية هرطقية في زمن الحداثة"(الدين والأخلاق والأدب). -"الثقافة الكورية والعالم العربي: من العصور الوسطى إلى عصر الإنترنت"(الأدب العربي المقارن).

-الأدب الرقمي المقارن"(الأدب الرقمي المقارن).

-"التواصل اللغوي في الأدب بأوروبا" (التواصل اللغوي في الأدب: أوروبا). -"الدراسات بين الوسائط والمادية الجديدة"(الأدب والفنون والميديا). بهذا يتضح أننا أمام دينامية جديدة للأدب المقارن من أبرز مظاهرها امتزاج مجالات الأدب المقارن المعروفة، في سياق تطورات منظورات المقارنين، بمجالات الدراسات متعددة الاختصاصات.الأمر الذي يعني ،من ناحية، إعادة نظر شاملة في الفرضيات المتمركزة على ذاتها، مع ما يستتبعه ذلك من تعدد الممارسات المقارنية ويعني ،من ناحية ثانية، انفتاح الدرس المقارن وقابليته الدائمة للتطوروالابتكار، فالمحاضرة الخاصة التي ألقاها رئيس جامعة دونكوك على سبيل التمثيل تستشرف-بوصفها أحد النماذج الدالة على التفكير المقارن في ظل التحول الرقمي- مستقبلا تولد فيه الشخصيات الأدبية الخالدة من جديد في شكل رقمي يتيح لها التفاعل عبر الثقافات والعصوروالتحاور مع جمهور عالمي، وتقترح أن يصبح تصميم شخصيات الذكاء الاصطناعي محورا رئيسيا للبحث الأدبي. مما سيمكن الأدب من التطور ليصبح قوة ديناميكية ذات صدى عالمي، تربط التراث العالمي بالتكنولوجيا(20).

3 - أفق «مقام»

أسفرالاحتفال بالذكرى السبعين لتأسيس"الرابطة الدولية للأدب المقارن" في سيول عن العمل على تطوير خطاب أدبي أكثر شمولا ومتوافق مع التكنولوجيا، وقد ساهم في ذلك باحثون،منخمسةوستين دولة من بينها دول عربية هي بالتتالي استنادا إلى عدد المشاركين في المؤتمر(المغرب،الإمارات العربية المتحدة ،مصر،العربية السعودية ،الجزائر ،الكويت والأردن).كما تم إبرام شراكات نذكر منها : اتفاقية تعاون مع برنامج ذاكرة العالم التابع لليونسكو.وخلال إحدى الجلسات التي عقدها المجلس التنفيذي في ضيافة المنظمين الكوريين ،يومين قبل انعقاد المؤتمر،تم اعتماد جامعة غلاسكوفي إسكتلندا مستضيفا للمؤتمر الخامس والعشرين سنة2028 بموضوع يعزز توسيع حدود الجغرافيا الثقافية المقارنية:"الفضاء والمكان في الأدب المقارن"(21).هذا مع العلم أن توسيع نطاق المقارنة وعبور الحدود في إطار "الرابطة الدولية للأدب المقارن" يشمل هويات رؤسائها وأعضاء مجلسها التنفيذي حيث تم انتخاب الأستاذة الهندية إبشيتا تشاندا من جامعة اللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية بحيدرأباد رئيسا حاليا للرابطة الدولية -مثلما سلف -في سياق تجديد مكتب المجلس ، الذي ينتمي أعضاؤه إلى مؤسسات أكاديمية غربية وشرقية منتشرة في مختلف القارات(22).

إن مسار"الرابطة الدولية للأدب المقارن"الحافل بالسعي الجاد إلى تطوير حقل الأدب المقارن وتوسيع نطاقه، قد شكل مرتكز إبشيتا تشاندا في تقديمها لأول نشرة إخبارية بعد انتخابها رئيسة.ففي هذا التقديم، الذي يمثل نظرة مستقبلية لما سيحدث خلال السنوات الثلاث القادمة بناء على ماتم إنجازه في عهد المجلس التنفيذي المنتهية ولايته برئاسة بولدريني، متعددة الدلالات، من دون لجوء إلى الترجمة، لتعبر بها أولا « maqam »وظفت كلمة -وهي تعول على عبورها الثقافي- عن مستوى"الرابطة الدولية للأدب المقارن" الرفيع والمكانة التي أصبحت تحتلها في المشهد الثقافي العالمي بفضل العمل الدؤوب لأعضاء المجلس السابق -ومن ثمة أعضاء المجالس"السابقة- ونجاحهم في توسيع دائرة الربط بين مقارني العالم.ولتؤكد من خلالها ثانيا أن عبورالحدود والاحتفاء بالتعددية والاختلاف يشكلان التزاما معرفيا وأخلاقيا بالنسبة للمقارنين المنتمين إلى الرابطة الدولية(23).في سياق استشراف المستقبل بالاعتماد على دلالات كلمة "مقام" العابرة للثقافات، تقولتشاندا:

«من بين المعاني التي تدل عليها الكلمة مايأتي : وجهة (سيتم) الوصول إليها ؛ نمط موسيقي محدد نشأ في غرب آسيا ؛ وجهة يتم الوصول إليها أثناء الأداء. ففي الموسيقى الهندوسية، يشير مصطلح "مقام" إلى مزيج من النوتات الموسيقية واللغة المنطوقة والمصاحبة الآلية والتنميق الصوتي. أي طرق محددة لتأدية نوتات معينة. إنها وجهة مشتركة يسافر إليها المغني والموسيقيون المرافقون،و يتحقق ذلك من خلال المشاركة الطوعية والنشيطة»(24).

هوامش:

1-https://icla2025-seoul.kr/fr
.2-Ibid
.3-Lucia Boldrini,"Opening message" , The ICLA Congress in Seoul in 2025
4-نحيل هاهنا على مداخلة ريني ويليك "أزمة الأدب المقارن" وعلى ردود الفعل الناتجة عنها .انظرفي هذا الشأن :
5-The Princeton Sourcebook in Comparative Literature: From the European Enlightenment to the Global Present , edited by David Damrosch, Natalie Melas, and Mbongiseni Buthelezi, .published by Princeton University Press in 2009
/6-http://www.ailc-icla.org/research/committee/digital-comparative-literature-dcl
/7-https://www.ailc-icla.org/fr
8-https://data.bnf.fr/en/ark:/12148/cb17803038x
9-https://www.fabula.org/actualites/11540/litteratures-comparees-et-traduction.html
/10-https://www.clai.in
11-https://www.ailc-icla.org/events/international-conference-the-history-of-comparative-/literature-in-central-europe
https://comparativeliterratureassociationeng.blogspot.com/12-
/http://www.ailc-icla.org/research/committee/arabic-comparative-literature 13-
https://www.ailc-icla.org/events/arabic-literature-and-world-towards-a-universal- 14-
/dialogue-between-self-and-other
15-https://icla2025-seoul.kr/I.-Research-Committee-Session-Proposals.docx
.16-Lucia Boldrini,op.cit
.Youngmin Kim,"Opening Address" , The ICLA Congress in Seoul in 2025
.17-Ibid
18-https://icla2025-seoul.kr/fr
.19-Ibid
20-https://www.youtube.com/watch?v=-WAFTMhbmbE&pp=2AaKRw%3D%3D
/21-https://www.ailc-icla.org/events/xxv-international-congress-2028
/28-22-https://www.ailc-icla.org/about-the-icla/executive-councils/ec-2025
A Message from"23-
our president":https://www.ailc-icla.org/site/assets/files/1524/ailc-icla-newsletter-\september-2025-.pdf
.24-Ibid

عبد الرّحمان الشّرفي
دَليل الكتابَة المِعماريّة

بنيونس عميروش
فنان تشكيلي وناقد

منذ فجر التاريخ الإسلامي، تشكلت معالم المعمار المغربي كأحد الفنون المتفردة في العالم الوسيط. ولعل أنماط البناء بالحجر والطوب الطري المنتشرة في السهول الأطلسية والمتواجدة في الجنوب المغربي (تافيلالت، درعة، دادس) تمثل إحدى حلقات امتداد الفنون القديمة المتعلقة بالعمارة الطينية. بينما تظل المدن العتيقة المنشأة في مختلف جهات البلاد، من أهم المراجع التي تقوم عليها الهوية المعمارية، خاصة وقد حافظ التلاقح الثقافي بين المغرب والأندلس لعدة قرون (بين 711 و1492م)، تداخلت عبرها المقومات الحضارية التي تتجلى في العمارة الأندلسية التي تظل ركيزة حضارية طالما أوجدت لها عناصر المُلائمة مع الطراز المغربي، كما نُميّز ذلك بوضوح في المدن المغربية مثل فاس ومكناس والرباط ومراكش وتطوان.

في المقابل، شهد المغرب الحديث مراحل تجديدية في العمارة والتعْمير مع مطلع القرن العشرين، منذ حقبة الماريشال ليوطي الذي أتى بفكرة «المتحف الاجتماعي» ليُبْقي على المدن العتيقة، ما دفعه للحفاظ على الشواهد المعمارية القديمة الأكثر تمثيلا للثقافة المغربية وإعادة تأهيلها بموجب مرسوم 1912 لتوسيع مجال تطبيقه الذي مس عمليات بناء المدن الجديدة. وقد تم ذلك وفق تصور شامل لنظرية «الفصل» التي عمل ليوطي على ترجمتها بتشييد مدن جديدة تحت قيادة هنري بروست، وهي الرؤية التي تقوم على فصل المدينة الجديدة، وحماية المواقع الحضرية التقليدية، وتطبيق التصورات الأكثر حداثة في مجال العمارة والتعمير على «المدن الأوروبية».

إنه التاريخ المعماري الحديث الذي يُقحمنا المهندس المعماري والباحث عبد الرحمان الشّرفي في بدائعه وسرائره عبر تركيزه على نموذج المدينة الجديدة بالعاصمة المغربية التي شكلت موضوع إصداره: Rabat La ville nouvelle--1990 «الرباط المدينة الجديدة: دليل الهندسة المعمارية 1914-1990» (منشورات Bouillon de Culture، 2023)؛ الكتاب الفاخر الذي أنجزه على امتداد عشر سنوات بالكثير من الإحكام والشفافية والشّغف.

يَنْصبُّ الكتاب على المباني المُصمَّمَة في مدينة الرباط الجديدة بين 1914 تاريخ وصول هنري بروست إلى المغرب و1990، بالتركيز على تلك المُنجَزَة خلال فترة الحماية، وإيلاء الاهتمام الدائم لما يقرب من خمسة وسبعين عاما من التعبير المعماري داخل منطقة محددة بدقة، في اتجاه استيعاب أفضل للهندسة المعمارية المغربية في النصف الأول من القرن العشرين، كما يوضح عبد الرحمان الشرفي، مُضيفا أن مُدُنا مثل الدار البيضاء والرباط تمتاز بكثافة عالية من المباني التي تنتمي إلى عدد من الاتجاهات التي حركت عالم الإبداع المعماري حينها، والتي يحددها في ثمانية أنماط من الكتابة المعمارية: التقليدية الجديدة، الكلاسيكية الجديدة، الهندسة المعمارية الرسمية، آرت نوفو، آرت ديكو، الحركة الحديثة، العمارة الخام Brutalisme، التيار ما بعد الحداثي، وهي الأنواع المُتباينَة التي نشأت في أوروبا وانتشرت في جميع أنحاء المعمور، غير أن عَوْلمة العمارة في القرن العشرين لم تمنع تعبيرات محددة مرتبطة بالأقاليم والثقافات المحلية، بحيث تبقى هذه الكتابات والركيزة التراثية التي ترتبط بها، سائرة في توليد عالم متنوع في المشاهد الطبيعية ومبانيها. فيما يشير الباحث إلى وجود معماريين اشتغلوا لفترة طويلة، طبعوا خلالها قلب العاصمة بشكل لافت، من أمثال أدريان لافورج وجان فرانسوا روبير اللذيْن قاما بإنشاء جميع المباني تقريبا في التسلسل المركزي لشارع محمد الخامس، بينما تؤكد خلاصة تحليل الأعمال على أن المهندسين المعماريين الذين شاركوا في بنايات المدينة الجديدة ظلوا بعيدين عن أي توجُّه إيديولوجي؛ ومن ثم يتطلب الكتاب جُهْد النّظر ورغبة الفهْم، فيما يُحفز على استدراج ناحية التطبيق لاستخلاص جوهر الفكر الذي تحول إلى عمل معماري.

في تلك الحقبة، تَجابَه المعماريون مع مسألة نادرة أثارها الكاتب؛ تتمثل في عدم إعادة إنتاج الهندسة المعمارية لبلدهم الأصلي أو للبلد المُضيف على حد سواء، وهذا ألبير لابْراد يؤكد على أن تطلع المعماريين إلى إيجاد تَوْليفة من شغفهم بفن السكان الأصليين، لم يَقُدْهُم إلى نسخة خاضعة للعمارة الأهلية، بل قادهم إلى حل وسط يتماشى مع ذوق عصرهم، في حب البساطة وتناغم الأحجام المُشابهة جدا لتلك الموجودة في البيوت العربية، بينما أشار هنري بروست إلى أن الواجهات مثل المستويات les plans، باتت مُريحا من الهندسة المعمارية التي تم تجهيزها لتلبية احتياجاتنا كأوروبيين، ولكن تم تزيينها من قِبَل اليد الحِرَفية الأهلية التي ظل فنّها حيّا للغاية. هكذا تم اعتماد جميع الأنماط المعمارية في المغرب، من أجل تبرير أو تبْيين المقاربات التّصَوُرية والأعمال المُنجَزَة استنادا إلى مراجع مُستعارَة من المدن القديمة والقصور والعمارة المغربية، بحيث يعمل معماريو التقليدية الجديدة على إشباع الواجهات بأشكال ومواد مستعارة من العمارة العربية والأمازيغية والأندلسية والإسلامية والشرقية وسواها، فيما يستحضر معماريو الحداثة الأحجام والأسْقف المسطحة ورصانة المدن القديمة، بينما تَستخدم التّيارات السّتة الأخرى أشكالاً أو مواد أو آليات مُستوحاة من نفس المصادر وتتم إعادة معالجتها أحيانا على الواجهة أو في المستويات أو تَرْصيف الفضاءات المشتركة (الفِناء، المُشْرِبية، الزّليج، البلاط، الأروقة وما إلى ذلك)، إذ يمكن اعتبار العمارة المُنجَزَة في المغرب على امتداد خمسة وسبعين عاما نَسيبَة مغربية، ومَغْربية جدّا، ضمن هندسة معمارية مُعَوْلمَة ومختلفة في نفس الوقت.

في حين، يُنبِّه المُؤَلِّف إلى أن الهندسة المعمارية في النصف الأول من القرن العشرين، ظلت مستبعَدَة في المجال الثقافي بالمغرب لكونها تمثلت في البداية كمظهر من مظاهر سلطة الهيمنة، إلى أن حدث التّحوُّل مع خطاب المغفور له الملك الحسن الثاني بمراكش في 1979، شجع من خلاله المهندسين المعماريين على ابتكار أعمال أصيلة تحيل على الهوية المغربية، ليتم توسيع هذا الحافز على الفور من قِبل المؤسسات العامة، ما دفع بالمهندسين المعماريين نحو استنباط بعض حلولهم من ثلاثة اتجاهات مهمة، تتلخص في العمارة التقليدية الجديدة والآرت ديكو والهندسة المعمارية الرسمية، وعلى إثر ذلك جرت إعادة تقييم الأعمال المعمارية التي قوبلت بالتجاهُل لفترة طويلة، لتتخذ صبغتها المرجعية لدى البعض.

بخصوص المساحات الخضراء في المجال الحضري، يشير الباحث إلى أن تصميم مدينة الرباط الجديدة، تَصادَف مع الحقبة التي كانت فيها القضايا الصحية في الحواضر تكتسب أهمية كبيرة، كما يتضح ذلك من المناقشات التي جرت في فرنسا داخل قسم الصحة الريفية والحضرية (SHRU)، ليتم سريعا تكليف العضو المؤسس للقسم جان كلود نيكولا فوريستييه للقيام بمهمة ترمي إلى «دراسة احتياطات الأراضي من أجل إنشاء المنتزهات والحدائق العامة في مدن المَحْمية» سنة 1913، وبالنتيجة تَقرَّر تخطيط ثلاث حدائق عمومية ضمن التصميم الحضري: حديقة الاختبارات، حديقة بلفيدير، حديقة مُثلث الرؤية (نزهة حسّان)، مع توفير مساحات ارتداد مزروعة على طول الواجهة الخارجية لجميع أسوار المدينة، وغرس الأشجار المُحاذية وفق امتداد المسارات على نطاق واسع، وزراعة الساحات الداخلية للمباني، لتتزيَّن المدينة بكثافة لونية بادية في الربيع.

إضافة إلى توصيف الأنواع المعمارية ذات الصلة بالأساليب والتيارات والحركات المُجسَّدة في المدينة الجديدة، يضم الكتاب في فصله الأخير عرض مائة مبنى من خلال صور مَصحوبَة بشروحات نصية مُفصَّلة، تُوضِّح طبيعة جميع الكتابات المعمارية المذكورة والفترة الزمنية بكاملها بين عامي 1914 و1990. فيما تجذر الإشارة إلى أن تطوير مضمون الكتاب، قد تمَّ بعد أن قدَّم مكتب المهندس عبد الرحمان الشرفي مشروع خطة لتنمية التراث بالرباط (PASP)، حيث عهدت إليه الوكالة الحضرية بالمدينة تأليف هذه الوثيقة في إطار مناقصة عمومية؛ ويُغطي المشروع مساحة تتكون من المدينة الجديدة وضاحية «ديور الجامع»، وهما مُكوِّنان من العناصر الثمانية التي تشكل العقار «الرباط، العاصمة الحديثة والمدينة التاريخية: تراث مُشترَك» المُدْرَج في قائمة التراث العالمي لمنظمة اليونيسكو في يوليوز/ تموز 2012. وفي إطار هذا النّسيج المديني باعتباره كلا مُتناغِما، يُقِرُّ المؤلف بأن فنّ التّعْميريّين les urbanistes يظلّ مُتوقفا بأكمله على العلاقات المتبادلة بين المباني، وعلى شكل ومِقْاس الكتل، ومسار الطرق الثانوية وتوابعها، بينما يظل هذا الفنّ الحَضري حافلا بأبعاد أخرى تسمح بالتحكم في الفضاء العام، من قبيل عمليات الدَّمْج الحضري، ومراعاة الطبيعة الطوبوغرافية، والتكييف المثالي للمَعابر، وإعمال المنظورات المفتوحة، ناهيك عن أهمية الجدولة المعمارية.

حقيقة، يُشكل هذا المُؤَلَّف الجسيم في فحواه وتصميمه، وثيقة تاريخية وجمالية وبيداغوجية، تُغني وتضبط معطيات ومرجعيات الحقل المعماري المغربي الذي لم ينل حظه من التقصي والتّصنيف والمتابعة. ومن ثمة، لم يكتف الكتاب بتمثيل التجربة الهندسية لمُؤَلفه عبد الرحمان الشرفي الذي رحل عنا مؤخرا (يناير/ كانون الثاني 2026)، بل تكاثفت على صفحاته خبرته كمعماري وأستاذ وباحث ورائد في صون التراث المعماري وتثمينه؛ الخبرة العلمية والنظرية التي اكتسبها على امتداد عقود من خلال دَيْمومة الدراسة والتفكير في إثراء الهندسة المعمارية المغربية وتجويدها.

شارع محمد الخامس في الرباط